



جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

صورة الأخ في الشعر الجاهلي

إعداد الطالب

عادل حمّاد القاسمي البلوي

إشراف

الدكتور خليل الرفوع

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة

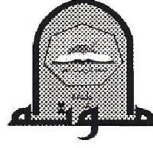
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2008

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية

لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم



MUTAH UNIVERSITY

Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب عادل حماد البلوي الموسومة بـ:

صورة الأخ في الشعر الجاهلي

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية.

التوقيع	التاريخ	
د. خليل عبد الرفوع	2008/08/13	مشرفاً ورئيساً
أ.د. علي ارشيد المحاسنة	2008/08/13	عضواً
د. ابراهيم عبدالرحمن النعانة	2008/08/13	عضواً
د. ماهر أحمد المبيضين	2008/08/13	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. حسام الدين المبيضين



MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail:

<http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm>

dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo

مؤتة - الكرك - الاردن
الرمز البريدي: 61710
تلفون: 03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الإلكترونية

الإهداء

إلى من أحب العلم وزرعه فينا، إلى من بذل الغالي والنفيس ليرى أبنائه وقد بلغوا مراتب العُلا... والدي.

إلى رمز الحنان النّدي والعطاء الم تدفق على استحياء وبخجل شديد أقدم بعضاً من فضلها... والدتي.

إلى من لهم في قلبي مكانه، وفي نفسي منزلة، وفي خاطري اعتذار، أخواني وأخواتي.

إلى كل أخ لي تجمعني به أخوة الإنسانية.

إلى الأستاذ الإنسان، الذي تعلمت منه الكثير، وغمرني بلطفه وكرمه ..
الدكتور: خليل الرفوع، أرجو من الله أن يجعل ما بيني وبينه من ودّ موصولاً...

إليكم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع

عادل حماد القاسمي البلوي

الشكر والتقدير

قال تعالى: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل (19) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

بعد الشكر لله تعالى على توفيقه لي بإتمام هذه الرسالة ، أتقدم بعظيم الشكر إلى الدكتور الفاضل خليل الرفوع الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على هذه الرسالة، ولما قدمه لي من عون ومساعدة، وتوجيه وإرشاد وسعة صدر كان لها بالغ الأثر في إتمام هذه الدراسة.

وعظيم شكري وتقديري إلى أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساعدني لتخرج هذه الرسالة بالشكل الذي يحقق المنفعة العلمية المرجوة، سواءً أكان بالنصح أم بالإرشاد أم بتقديم المساعدة.

والله ولي التوفيق

عادل حمّاد القاسمي البلوي

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء.....
ب	الشكر والتقدير.....
ج	فهرس المحتويات.....
هـ	الملخص باللغة العربية.....
و	الملخص باللغة الإنجليزية.....
1	الفصل الأول: عاطفة الإخوة.....
1	1.1 المقدمة.....
3	2.1 الحب.....
16	3.1 الحاجة للأخ.....
21	4.1 العتاب واللوم.....
26	الفصل الثاني: الأخ سيداً ومحارباً.....
26	1.2 سيادة الأخ للقبيلة.....
32	2.2 صورة الأخ في الحرب.....
41	الفصل الثالث: رثاء الأخ.....
41	1.3 البكاء والندب.....
50	2.3 أثر موت الأخ في نفس أخيه.....
53	3.3 العزاء والسلو.....
56	4.3 التآبين (خصال الأخ المرثي).....
71	5.3 الطقوس والأساطير في رثاء الأخ.....
82	الفصل الرابع: الثأر للأخ.....
82	1.4 الثأر والمجتمع الجاهلي.....
88	2.4 الحرص على إدراك الثأر.....
101	3.4 رفض الدية.....

الصفحة	المحتوى
104	الفصل الخامس: الدراسة الفنية
104	1.5 مطلع قصيدة الرثاء.....
106	2.5 خاتمة القصيدة.....
107	3.5 الوحدة الموضوعية.....
109	4.5 الوحدة العضوية.....
111	5.5 الألفاظ والتراكيب.....
113	6.5 التكرار.....
120	7.5 الصورة.....
128	8.5 الخاتمة.....
131	المراجع.....

الملخص

صورة الأخ في الشعر الجاهلي

عادل القاسمي البلوي
جامعة مؤتة، 2008م

تناقش هذه الرسالة موضوع صورة الأخ في الشعر الجاهلي، وبيان ما له وما عليه تجاه إخوته، التي تربطهم بهم رابطة النسب، في ظل مجتمع يقوم على مبدأ الكثرة والترابط والتلاحم.

تكونت الرسالة من خمسة فصول: فالفصل الأول ناقش موضوع عاطفة الأخوة من حب وصدق وإخلاص ووفاء للأخ في حياته وبعد موته، وكذلك الحاجة للأخ في السلم والحرب، والعتاب واللوم بين الأخوة، وناقش الفصل الثاني سيادة الأخ للقبيلة، وأهم الصفات التي يتمتع بها الأخ ليكون سيداً للقبيلة من شجاعة وصبر وفروسية وإتقان فنون القتال بعامية، وناقش الفصل الثالث رثاء الأخ بتعريف معنى الرثاء من شجن وألم وحسرة على فقد الأخ، والعزاء والسلو للتخفيف من أثر الصدمة بموت الأخ، وتحدثت عن أهم الخصال التي يتمتع بها المرثي من كرم وشجاعة، وحلم، وصبر ووفاء، ومروءة، وشرف نسب، وبيان أهم الأساطير والطقوس المتعلقة بالرثاء للأخ، من الوقوف على القبر والدعاء بالسقيا وعدم البعد، والهامة والصدى وأسطورة الصفر، وبنات نعش، والقمر والحيوان الطوطمي، والإبل وأسطورة الحيوان والفناء، أما الفصل الرابع فقد تناول الثأر للأخ، وبيان نظرة المجتمع الجاهلي للثأر وحرص الأخ على إدراك ثأره ورفض الدية من قاتل أخيه لأنهم يرونها جناً وعبئاً. والفصل الخامس تناول نماذج من شعر الأخوة في ذلك العصر ودراستها دراسة فنية فلقد درست المقدمات والمطلع والخاتمة والوحدة الموضوعية والعضوية والتكرار وأبرز ظواهره، والصورة في رثاء الأخ ومن أين استمدّها الشاعر.

وفي الخاتمة: سجلت أهم ما ورد في هذه الرسالة من نتائج عن صورة الأخ في الشعر الجاهلي.

Abstract
Brothers Picture in Gahili Poetry

Adel Hamad AL-Qasmy AL-bluwy

Mu'tah University, 2008

This study deals with the main subject of the brothers picture in jahili poetry towards his brothers showing what he has to do toward himself and his brothers due to the descent relation between them under society that goes with connections, multiply, and strength.

This study has five section:

The first section dealt with brotherhood sentiment love, honest, faith, loyalty for brother for both his life and his death as well as the needs for brother in peace and war-also it dealt with blaming between them. The second section dealt with the supremacy of brother toward the tribe showing the accurate characteristics that he must have- to be the chief exactly courage patience and having the good skill of being Persian

The third section dealt with brother elegiac poetry through identify the elegy from sadness, grief on death of the brother and consolation to decrease shock of others death, also the study showed the accurate characteristics that lament should have {generosity, courage patience, loyalty, sense of honor and the accurate descent} and showing the accurate legends and rituals that have a connection with death of the brother and standing on the grave through invocation and not being far, sacrificing and the legend of (Banat naish) and (legend), the moon and the animal, the camel and the legend of the animal and songs .

The Four the section dealt with the revenge for the brother and showing the attitudes of gahily society toward the revenge and showing the importance of recognizing the revenge and refusing the blood money because they look to it as a some thing shame.

The fifth section dealt with forms of brothers thanks at that area and studying it in artistic way, so it studied the introduction, the beginning and the ending as well as the subjective and being sorry and the refutation and showing its norms shafs, and showing the picture of brothers descent showing from where the poet take it.

At the end; I wrote the importance things that mentioned in this study from the results about the main picture of the brothers in gahilh poetry.

الفصل الأول عاطفة الأخوة

1.1 المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وبعد:
لقد تناولت في هذه الدراسة موضوع (بورة الأخ في الشعر الجاهلي)
بالدرس والتحليل، حاولت أن أبين قيمة الأخوة في العصر الجاهلي ومدى تلاحمهم
وترابطهم، ومدى حاجتهم لبعضهم البعض في ذلك العصر.
وتهدف هذه الدراسة التحليلية صورة الأخ في الشعر الجاهلي وموقف
الشعراء من عاطفة الأخوة في جميع الحالات سواء السلمية أو الحربية ، كون
الشاعر يعيش في مجتمع قبلي محكوم بأعرافه ، فلا يستطيع أن يعيش دون سند من
أخ أو قريبكم تستهدف هذه الدراسة الوقوف على رؤية الشاعر لأخيه بعد موته ،
الذي يمثل دعوته للأخذ بالثأر رافضاً قبول الدية ، لكن هذه القضايا تحتاج إلى تبيان
واستقراء للشعر الجاهلي ودراسته في مظانه الأصلية، ومن ثم فإن الدراسة تعتمد
الشعر الجاهلي لتحديد صورة الأخ.
قد اقتضت طبيعة الدراسة الأخذ بعدد من المناهج ، حيث يتبع المنهج المناسب
في الموضوع الذي يتطلبه ، وهذا التداخل في استخدام المناهج يجعل من الدراسة
أقرب ما تكون إلى المنهج التكاملي.
وقد جاءت الدراسة في خمسة فصول:

فالفصل الأول يبحث في عاطفة الأخوة في الشعر الجاهلي، فتحدثت عن الحب
بين الإخوة وصدق العاطفة و الإخلاص في المودة و التقدير، ثم تحدثت عن الحاجة
إلى التلاحم والتآزر في ذلك المجتمع ، ومن ثم الحديث عن العتاب و اللوم بين الإخوة
على هجران و القطيعة والبخل بالمال وعدم المساندة في ظروف تلك الحياة القاسية ،
استناداً إلى دراسة نماذج شعرية مختارة تدلل على مثل هذه العلاقات بين الإخوة.
ويفصل الثاني في صفات الأخ سيداً و محارباً، والبحث في الصفات
التي لا بد أن يتحلى بها الأخ ليكون سيداً للقبيلة ومدافعاً عنها، ومن ثم تحدثت عن

صورة الأخ في الحرب، من شجاعة وصبر وتحمل، وإتقان فنون القتال من المبارزة إلى الضرب بالسيف والرمح، وكذلك الفروسية مستدلاً على ذلك بالشعر.

وبحث الفصل الثالث في رثاء الأخ وما يتعلق به من معاني التفجع و الألم والحسرة على فقدان الأخ السند والمعاون له في هذه الحياة ، وبعد ذلك تم عرض أثر موت الأخ في أخيه، حيث يغد من المصائب الشديدة التي يصعب احتمالها يتروك فقد الأخ أثراً بالغاً في النفس ، وقد يظهر الأثر في الجسد بارزاً لا يمحوه الزمن والشواهد من الشعر على ذلك كثيرة ، وبعد ذلك يحتاج الشاعر إلى العزاء والسلو ليخفف غفنيه من حدة الحزن والألم الذي يشعر به ليوأجله المعاناة والألم بالصبر والتأسي بعد ذلك تحدثت عن التأبين وهو ذكر خصال المرثي ، ومن هذه الخصال الكرم والشجاعة والصبر والحلم والعفة والوفاء ونبل المحتد وشرف النسب ومن ثم تحدثت عن الطقوس والأساطير في رثاء الأخ ، ومن ذلك الدعاء بالسقيا لقبر الميت ، والوقوف على القبور ، والدعاء للميت بعدم البعد، وكذلك من الأساطير المتعلقة برثاء الأخ الهامة والصدى ، وأسطورة الصفر ، وأسطورة القمر، والحيوان الطوطمي، وأسطورة بنات نعش ، وكذلك تقديس الناقة وعلاقتها بالمرثي والراثي، مع الاستشهاد بالشعر على هذه المحاور جميعها.

وتطرق الفصل الرابع إلى الحديث عن الثأر للأخ وكيف كان الثأر عند المجتمع الجاهلي الذي كان يدعو دائماً إلى الحرص على إدراك الثأر وعدم التخلي عنه مهما كانت الظروف وكيف كان الأخ مجبراً على الأخذ بثأر أخيه من أعدائه لئلا يوصم بالجن والعار، وكذلك رفض الأخ مبدأ قبول الدية لأنه يعد ذلاً وجبناً لمن يأخذه أو يقبل به.

وعرض الفصل الخامس من شعر الإخوة في ذلك العصر ، وتمت دراستها دراسة فنية ، فتحدثت عن المقدمات في قصائد الرثاء المتعلقة بالأخ، وكذلك عن المطلع في قصيدة رثاء الأخ ، وكذلك خاتمة القصيدة ومن ثم تطرقت إلى الوحدة العضوية والموضوعية في شعر رثاء الأخ ، ووجدت أن الوحدة تبن العضوية والموضوعية قد تحققتا، ومن ثم درست الألفاظ وتطرقت إلى أهم ما تكرر فيها لدى

الشعراء، وبعد ذلك تحدثت عن التكرار في الشعر المتعلق بصورة الأخ وهو كثير جداً، ثم تحدثت عن الصورة الشعرية في القصائد التي تحدثت عن الأخ. تجددوا الإشارة إلى أن الدراسة اتكأت على مصادر قديمة ومراجع حديثة ، منها ما هو مطبوع ومنشور ومنها ما لم ينشر كالرسائل الجامعية فمن كتب الأدب والتاريخ: كتاب الأغاني، وخزانة الأدب ، والكامل في التاريخ ، والبيان والتبيين وعيون الأخبار وغير هالكما تم الاعتماد على المصادر الجامعة للشعر من مثل : الأصمعيات، والمفضليات وديوان الحماسة لأبي تمام ، وفضلاً على ذلك فقد تم استقراء معظم دواوين الشعر الجاهلي المطبوعة التي توافرت للباحث؛ للحصول على مادة شعرية وفيرة وزاخرة بالعلاقات الإنسانية بين الإخوة، إلى جانب الاطلاع على المراجع الحديثة مثل : كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب قبل الإسلام لمحمود شكري الألويسي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، والمرأة في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي ، والإنسان في الشعر الجاهلي لعبد الغني زيتون والأسرة في الشعر الجاهلي لماهر المبيضين ، والحياة العربية في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي، وغيرها من الدراسات التي تهتم بموضوع الرسالة. والله نسأل أن ينفعنا بما قدمنا نؤيسد على الخير خطانا ، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

2.1 الحب:

"إن الناظر في الشعر الجاهلي الذي عرض لعلاقة الإخوة، سواء أكانوا من أم واحدة أم من أمهات مختلفات، يستشعر بحسه ومشاعره ما كانت عليه علاقة الإخوة في المجتمع الجاهلي من حب وفخر واعتزاز، ووفقاً للعاطفة الصادقة بين الإخوة فإن الأخ كان أشد انتماءً وحباً لأخيه، حريصاً على صون كرامته، بل أحياناً يفضلته

على أفراد القبيلة، ويتعدى ذلك إلى إثارة على زوجه في كثير من الأحيان، وقد بدت هذه المعاني الصادقة جلية في نصوص شعرية كثيرة⁽¹⁾.

وتطالعنا بعض النصوص والروايات التي يتجلى فيها حب الأخ لأخيه، حتى يضاهي هذا الحب حُبَّه لأبنائه أحياناً، وهذا بلا ريب يومئ إلى مكانة الأخ ومنزلته في قلب أخيه، فقد ورد في بعض الروايات أن أعرابياً قتل أخوه ابناً له وسبق ليقْتاد منه، فما كان منه إلا أن ألقى السيف من يده، وقال⁽²⁾:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسِئَةً وَتَعْزِيَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرَدِّ
كِلَاهُمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدَ صَاحِبَهُ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي
فلا يرى الشاعر فرقاً بين أخيه وبنه، ولذلك ضرب اليد مثلاً، لأن الإنسان يعتز بأخيه ويفتخر به، كما يبطش بيده ويدفع بها.

ومما ورد من أخبار وروايات تؤكد أن حب الإخوة كان مضرِباً للأمثال، ما يُروى أن معن بن عطية المذحجي قد ثرَّ إنقاذ أخيه من أسره الذي وقع فيه على إنقاذ سيد قومه، على الرغم من أن أخاه كان يوصف بالسفاهة، فقال يخاطب أخاه معللاً موقفه هذا بقوله: "غَتُّكَ خَيْرٌ مِنْ سَمِينٍ غَيْرِكَ"⁽³⁾.

وزيادة على حُبِّ الأخ لأخيه الذي يبدو في هذه الرواية، فإن موقف معن من أخيه، وتخاذله عن إنقاذ سيد قومه، يدلُّ بوضوح على مدى الانتماء والتلاحم

(1) المبيضين، ماهر، (2003) لأسرة في الشعر الجاهلي، ط 1، دار البشير، عمان، الأردن : ص185.

(2) ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم (ت: 276هـ)، (د.ت) عيون الأخبار، تحقيق : مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 100/3.

(3) الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت: 518هـ)، (د.ت) مجمع الأمثال، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لبنان : 58/2؛ انظر: زيتون، عبد الغني أحمد، (2001) الإنسان في الشعر الجاهلي، ط 1، مركز زايد للتراث والتاريخ، أبو ظبي، الإمارات، ص144، وانظر: المبيضين: لأسرة في الشعر الجاهلي، ص 191؛ الحوفي، أحمد محمد، (د.ت) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط 3، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، ص209.

الأسري بين الإخوة، وهو أمر أشار إليه ابن خلدون في مقدمته، "إذ إن الأنساب الخاصة تكون أشد التحاماً من النسب العام لهم، من مثل عشير واحد، أو أهل بيت واحد، أو إخوة بني أب واحد"⁽¹⁾.

ومن دلالة الحب والمودة بين الإخوان الخوف على الأخ ونصيحته، ومن ذلك قول متمم بن نويرة لأخيه أريد:

أُخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الْحَتُوفِ وَلَا أَرْهَبُ نَوَاءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ⁽²⁾

فهو يخشى عليه كل سبب من أسباب المنية، دلالة على المحبة والإخاء، ومن مظاهر محبة الأخ لأخيه الدفاع عنه وقت الأزمات، ومن ذلك حديث سعيد بن مالك⁽³⁾ بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، واعتزام الملك على قتل أخيه⁽⁴⁾ إن هو لم يصب ضميره، فقال له سعيد : أبيت اللعن أتدعني حتى أقرع بهذه العصا أختها؟ فقال له للملك غلمه بما تقول العصا، فقرع بها مرة وأشار بها مرة، ثم رفعها ، ثم وضعها، ففهم أخوه المعنى فأخبره ونجا من القتل⁽⁵⁾.

(1) ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، (1988)، المقدمة، ط5، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص164.

(2) الضبي، المفضل بن محمد (ت: 168هـ)، (د.ت) المفضليات، تحقيق : أحمد شاکر وعبد السلام هارون، بيروت، لبنان: 121/6.

(3) سعيد هذا والد جد طرفة بن العبد بن سفيان بن سعيد بن مالك، أحد سادات بكر بن وائل وفرسانها في الجاهلية وشعرائها؛ انظر الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: 255هـ)، (د.ت) البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص38.

(4) أخوه هذا هو عمر بن مالك، وكان النعمان قد أرسله رائداً للكلاء فأبطأ عليه فأغضبه ذلك فأقسم أن جاء حامداً أو ذاماً ليقتلنه، فاحتال أخوه سعيد في إنقاذه بقرع العصا.

(5) الجاحظ، البيان والتبيين: 39/3.

من مظاهر محبة الأخ لأخيه أيضاً فكه من الأسر، فقد كتب سلامة بن جندل أبياتاً من الشعر بعث بها إلى صعصة بن محمود بن مرشد، وكان أخوه أحمر بن جندل أسيراً في يده فأطلقه له، يقول سلامة⁽¹⁾:

سأجزيك بالقد الذي قد فككته سأجزيك ما أبليتنا العام صغصعا
فإن يك محمود أباك فإننا وجدناك منسوباً إلى الخير أروعا
سأهدي وإن كنا بنتليث مدحة إليك وإن حلت بؤوتك لعلعا
فإن شئت أهدينا ثناء ومدحة وإن شئت عدينا لكم مئة معاً
فقال له: الثناء والمدحة أحب إلينا.

ومن مظاهر حب الأخ لأخيه كذلك فك أسره من القتل، مثل ما فعل أبو طالب عم النبي ٢ مع أخيه عبد الله والد النبي ٢ عندما هم والده بذبحه وثب إليه بله أبو طالب، وكان أخا عبد الله لأبيه وأمه وأمسك يد أبيه عن أخيه، وأنشأ مرتجراً⁽²⁾:

كلاً ورب البيت ذي الأنصاب ما ذبح عبد الله بالتلعاب
يا شبيب إن الریح ذو عقاب أن لنا مرة في الخطاب
أخوال صدق كأسود الغاب

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبي طالب وكانوا أخواله قالوا: صدق ابن اختنا ووثبوا إلى عبد المطلب فقالوا: يا أبا الحرث إنا لا نسلم ابن اختنا للذبح فاذبح من شئت من ولدك غيره، فبهذا الفعل نجح أبو طالب في الدفاع عن أخيه ونجاته من القتل إلى أن فاداه والده بمائة من الإبل⁽³⁾، وأشار النبي ٢ إلى ذلك بقوله: "أنا ابن الذبيحين"، يعني أباه عبد الله وجده إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

(1) ابن جندل، سلامة، (1407هـ) الديوان، ط 2، تحقيق: فخر الدين قباوه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 202.

(2) الألوسي، محمود شكري، (د.ت)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 47/3.

(3) القصة كاملة موجودة في كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، سبب الحادثة أن عبد المطلب بن هاشم نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم بين يديه رجلاً أن ينحر

كذلك نجد أن الشاعر قد يفضل أخاه على زوجته، كما هو الحال لدى دريد بن الصمة الذي بلغه أن امرأته شتمت أخاه عبد الله، فعمد إلى تطليقها وإحاقها بأهلها، وقد عبر عن موقفه هذا بقوله⁽¹⁾:

أعبد الله إن سبتك عرسي تساقط بعض لحمي قبل بعض
إذا عرس امرئ شتمت أخاه فليس فؤاد شائنة بحمض⁽²⁾
معاذ الله أن يشتن رهطي وإن يملكن إبرامي ونقضي

وقد ورد في أخبار بعض الشعراء أن حب الأخ لديه ضاهى حب الأبناء في بعض الأحيان، فقوي أن بني فهم أسروا عروة أبا خراش الهذلي . فأراد أبو خراش أن يخلصه منهم، ولم يكن معه فكاكه فرهن ابنه عندهم إلى أن يبعث بفدائه، وقد أشار إلى ذلك في بعض أشعاره⁽³⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأخوات أكثر عاطفة وأشد محبة لإخوانهن في غالباً وذلك بحكم ما جلبت عليه النساء من قلوب رقيقة ومشاعر مرهفة ، حيث لا تستطيع المرأة أن تخفي حُبها وتعلقها بأخيها، فعندما أصيب صخر بن شريد السلمي بالمرض، تحركت عاطفة أخته الخنساء تجاهه ، فانبرت تسأل عنه مبدية ألمها وحزنها عليفها كان من الأخ إلا أن أجابها بعزم وصبر على ما به من علة مآلها الهلاك والموت، فقال صخر مصوراً موقف أخته الخنساء منه وإحاحها في السؤال عنه، بعاطفة صادقة، ملؤها الحب والحنان⁽⁴⁾.

أحدهم للكعبة شكراً لله تصوراً منه أنها من أفضل القرب إلى الله، فخرج السهم على ابنه عبد الله فهم بقتله إلى أن فاداه بمائة من الإبل.....الخ ص47/3، 48.

(1) الجشمي، دريد بن الصمة، (1981)، الديوان، تحقيق: محمد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق، سوريا: ص90.

(2) الشائي: الكاره الحاسد، وفؤاد حمض: فؤاد فاسد متغير.

(3) الأصفهاني، أبي الفرج (ت: 412هـ)، (د.ت)، الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر، تونس، 21/215.

(4) ابن حبيب، محمد، (1972) ألهماء المغتالين من الأشراف من نوارد المخطوطات، ط 2، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، مصر : 2/218، الخنساء،

أجارتنا إنَّ الخُطوبَ تُريبُ علينا وَكُلُّ المُخطئينَ تُصيبُ
فإنَّ تسأليني كيف صبري فإنني صبورٌ على ريبِ الزمانِ أريبُ
كأنِّي وقد أدنو لحزٍّ شغارهمُ من الصبرِ دامي الصفحتين ركُوبُ
أجارتنا لستُ الغداة بِظاعنٍ ولكن مُقيمٌ ما أقام حسيبُ

وكذلك أحببتُ خللاً أخاها واعتزت به، وكثيراً ما كانت تؤثره على زوجها ؛
لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين الأب و ابنته والأخ وأخته أقوى
منها بين الزوج وزوجه، وفي كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه
وقبيلتها ولا يرى زوجه إلا زائراً، بل إن الأخ في المدينة القديمة كان أعز على
المرأة من زوجها، (فزوجة انتقرنينز) أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة دارا، كذلك
(انتجوننا) ضحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها، والفكرة القائلة بأن زوج
الرجل أقرب إنسان إلى قلبه وفكره حديثة، وغير محققة إلا في بعض الأمم⁽¹⁾.
ولم تُطَق الزهراء بنت وائل أن ينتقص زوجها لبيد بن عنبسه الغساني من
قدر أخيها كليب، فقالت له في عزة وغضب لا أعلم في العرب ذا لبدة أشد من
كليب، فهاج لبيد ولطمها، فقالت له: أنا أكرم منك، وذهبت مغضبة إلى أخيها⁽²⁾.
وعندما دخلت ناقة البسوس حمى كليب وهمَّ بعقرها، ناشدته زوجته بأن لا
يرهب صهره، ولا يقطع رحمه، فجاءت في قلبها مشاعر الإخوة ووقفت بين عاطفة
أمتجة وموقف جلل حل بها، وبعد أن قتل جساس كليباً قالت أخته جلييلة بنت مرة
في ذلك⁽³⁾:

تماضر بنت عمرو بن الشديد (ت: 24هـ)، (1988) الديوان، ط 1، تحقيق أنور أبو
سويلم، دار عمار، عمان، الأردن، ص 363 مع بعض الاختلاف في الأبيات، أريب: أديب.
(1) ول، ديوارنت، (1981) قصة الحضارة، ط 3، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف
والترجمة والنشر، القاهرة، مصر: 58/1.
(2) الحوفي، أحمد محمد، (د.ت)، المرأة في الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر للطبع والنشر،
القاهرة، مصر، ص 320.
(3) غريب، جورج، (1984) لماعرات العرب في الجاهلية، ط 1، دار الثقافة، بيروت، لبنان،
ص 79. وانظر المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص 192.

أَخٌ وَحَرِيمٌ دَاخِلٌ إِنْ قَطَعَتْهُ وَكَيْفَ يَسُوءُ الْقَوْمَ مَنْ قَدْ يَسُودُهَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا بَيْنَ هَاتَيْنِ وَاقِع وَكَلَّتَاهُمَا وَزُرٌّ وَصَعْبٌ كُؤُودُهَا

ومن مظاهر الحب بين الإخوان حب الأخ لأخته والد فاع عنها وعن شرفه المتمثل بها، وأي دليل على ذلك أعظم من أن يقاسم الأخ أخته ماله مرات، جاء في حديث الخنساء للسيدة عائشة رضي الله عنها، قولها: زوجني أبي رجلاً مبدراً، فأذهب ماله، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين، فأعطاني خيرهما، ثم ضيع زوجي ماله مرة أخرى، فقسم أخي ماله شطرين، فأعطاني نصفه، فلما كانت الثالثة قالت امرأته: أما ترضى أن تعطيهما النصف حتى تعطيهما الخيار؟ فقال⁽¹⁾:

والله لا أَمْنُهَا شَرَّارَهَا وَهِيَ حَصَانٌ قَدْ كَفَتْنِي عَارَهَا
وَإِنْ هَلَكْتُ خَرَقْتُ خِمَارَهَا وَاتَّخَذْتُ مِنْ شَعَرِ صِدَارَهَا

فلقد مدح صخر أخته الخنساء بأنها حصينة شريفة لم تدنس سمعة أهلها ؛ لأنه يهيمه شرفه وشرفها ولذلك أحبها لأنها شريفة عفيفة.

وأي شيء أدل على الاهتمام والحب من أن يتخير الرجل زوجه ثيباً حتى لا تضار أخوته كما تضارهن الشابة حدّ ث جابر بن عبد الله أن رسول الله ر سألّه: هل نكحت يا جابر؟ فقال نعم فقال رسول الله : ماذا؟ أبكراً أم ثيباً ؟ فقال: بل ثيباً . قال الرسول: فهلا جارية تلاعبك ؟ فقال جابر : يا رسول الله إن أبي قُ تِل يوم أحد، وترك لي تسع أخوات، فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن، ولكن امرأة تمشطنهن وتقوم عليهن، فقال الرسول: أصبت⁽²⁾.

وكان الأخ يستمتع لمشورة أخته ويذعن لرأيها في أمور شتى ، من هذا أن سفانة ابنة حاتم الطائي بعد أن أطلقها النبي ر من السبي وكساها وأعطاهـا- لحقت بأخيها عدي، وكان قد فرّ إلى الشام هارباً فرغبته في الإسلام، وأن يلحق برسول الله

(1) الحوفي المرأة في الشعر الجاهلي، ص 315، وانظر: الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت: 328هـ)، (1989)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان : 229/3.

(2) العسقلاني، ابن حجر، (1989)، فتح الباري، تحقيق : عبد العزيز ابن باز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 275/7.

سريعاً، وجاء في كلامها : "فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت " فقال لها: والله إن هذا للراءى، وقدم على رسول الله وأسلم"(1).

وكان الإخ في المجتمع الجاهلي على علاقة متينة بأخواته أيضاً يضرر لهن كل معاني الحب والوفاء، حرصاً منه على عرضه وشرفه، ولما كانت الحياة الجاهلية قائمة على الحروب والمنازعات، فإن كثيراً من النساء يقعن في السبي والأسر، وعندما يرى الأخ أخته قد حطَّ بها القدر في أسر العدو، فإنه يبذل قصارى جهده من أجل خلاصها، يفتديها بأعز ما يملك من إبل وخيل، فقد أسر عمرو بن الحارث بن أقيش العكلي حسينة بنت جابر بن بجير بن شريط العجلي، أخت أبحر ابن جابر في يوم العذاب في الجاهلية، ففادها أخوها أبحر بمئة من الإبل وخمسة أفراس، فسار معها عمرو بن الحارث حتى جوزها أرض بني تميم، فقال الحارث يصور موقف أخيها أبحر، وحرصه على فداء أخته(2):

وَكَاثَتْ صَفَوْتِي مِنْ سَبِي عَجَلُ
وَهَبْنَاهَا لَأَبْجَرَ إِذْ أَتَاهَا
حَسِينَةُ مِنْ كَوَاعِبَ كَالظِبَاءِ
وَفِينَا غَيْرَهَا مِنْهُمْ نِسَاءُ
فَكَانَ ثَوَابُهُ مِنَّا جِيَاداً
وَسُوقَ هَنِيْدَةٍ فِيهَا رِعَاءُ

"ومن حرص الأخ على صونته متابعة شؤون حياتها بعد زواجها، رغبة فيمئلاً تتزوج من رجل كريم، طيب النسب والشرف، مبتعدة عن اختيار الرجل الضعيف والجاهل الذي يقع في المساوئ نتيجة لحمقه ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على إعز از الأخ لأخته، وتعلقه بها، وصدق عاطفته تجاهها، فهو يتمنى لها

(1) البصري، ابن هشام، (1985) مختصر سيرة ابن هشام، تحقيق : محمد عفيف الزعبي، دة النفائس، بيروت، لبنان: 248/4.

(2) المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، (د.ت) معجم الشعراء، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج، دار الرسالة، بغداد، العراق ، ص37. ويوم العذاب : اليوم الذي أغارت فيه بنود هناة بن أد ابن طابخة على عجل وحنيفة بأرض جؤ باليمامة . وانظر: المبييضين. الأسرة في الشعر الجاهلي. ص194.

حياة كريمة مصدنة كرامتها مع رجل يحقق لها العزة والمنعة، وقد صور هذا الموقف امرؤ القيس في وصيته لأخته هند⁽¹⁾، فقال:

يا هندُ لا تتكحِي بُوْهَةً	عليه عقيقتُهُ أحسباً
مُرسَّعةً بينَ أرساغِهِ	به عَسْمٌ يَبْتَغِي أَرْنباً
لِيَجْعَلَ فِي كَفِّهِ كَعْبَهَا	حِذَارَ الْمَنِيَّةِ أَنْ يَعْطَبَا
وَلَسْتَ بخزرافةٍ في القعود	ولستِ بطياخةٍ أخذباً
ولستِ بذِي رَثِيَّةٍ إمَّرٍ	إذا قيدَ مُسْتَكْرَهَا أَصْحَبَا
وَقَالَتْ بِنَفْسِي شَبَابٌ لَهُ	ولمَتُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْجَبَا
وَإِذْ هِيَ سَوْدَاءُ مِثْلَ الْفَحِيمِ	تُغْشَى الْمَطَانِبَ وَالْمُنْكَبَا

وكان الأخ يحمي أخته حتى من زوجها الذي له حق القوام عليها، فلا يتغاضى عن إساءة زوجها إليها، ولا يغفر له أن يذلها، من ذلك أن بكرة بنت مليص من بني مُقْلَد بن كليب كانت تحت تميم بن علاثة من بني سليط، فضربها فشجها، فلقىخوها زوجها فلامه على ضربها، وشجها، فوقع بينهما شجار، فشج تميم أبا بكرة أيضاً، فانتقم الأخ لنفسه ولأخته، فشج الزوج فأمة⁽²⁾.

وقد سبق أن كليب وائل ثار حينما استغاثت بهخته من زوجها لبيد بن عنبسة إذ لطمها وأذلها وانتقص من قدر أخيها، وكان من أثر ثورته حرب زبون بين اليمنيين وربيعه ومضر ومن حالفهما⁽³⁾.

وكان يحمي من تجيره إغزازاً لها واعتداداً لحمايتها، وقد ضرب المثل بفكيهة، فقيل: أوفى من فكيهة، وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة، كان من وفائها أن

(1) امرؤ القيس، ابن حجر بن الحارق بن عمرو بن حجر (ت: 450) الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر : 128-129، والبوهة: البومة: تضرب مثلاً للرجل الذي لا خير فيه ولا عقل له، الخزرافة: الخوار الضعيف؛ الرثية: وجع المفاصل من الضعف والكبر، الطياخة الذي يقع في سوء لحمقه، انظر: المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص194.

(2) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص316، أمه: أصاب أم رأسه.

(3) المصدر نفسه، ص316.

ليُلبسُ السِّلَكةَ غزا بكر بن وائل فبصروا به فعدا حتى ولج في دار فكيهة
فاستبجها، فأدركوه وحاولوا أن ينزعوه منها، ونزعوا خمارها، فاستغاثت بإخوتها
فجاءوا عشرة فمنعوه وأجاروا السليك، وفي ذلك يقول السليك مادحاً لها⁽¹⁾:

لَعَمْرُ أَبِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَتَمَّى لَنَعَمَ الْجَارُ أُخْتُ بَنِي عُوَارَا
مِنَ الْخَفَرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَبَاهَا وَلَمْ تَرْفَعْ لِإِخْوَتِهَا شَنَارَا
وَمَا عَجَزَتْ فُكِيهَةٌ يَوْمَ قَامَتْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَأَنْتَزَعُوا الْخِمَارَا

وكانوا يغارون عليها أيضاً، من ذلك أن القَتَّالَ عبد الله بن المضرحي -
كان يتحدث إلى ابنة عمه، فقدم أخوها زياد ورآهم، فنهى القتال، وحلف لئن رآه
ثانية ليقتلنه، وبعد أيام رآه يحدثها فأخذ السيف ليضربه فبصر به القتال فخرج
هارباً، فتبعه زياد فلما دنا منه ناشده القتال بالله وبالرحم، فلم يلتفت إليه، فعطف
القتال على زياد فقتله وقال⁽²⁾:

نَهَيْتُ زِيَادًا وَالْمَهَامَةَ بَيْنَنَا وَذَكَرْتُه أَرْحَامُ سَعْدٍ وَهَيْثُمُ
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرُ مَنْتَهٍ أَمَلْتُ لَهُ كَفِي بِلَدْنِ مَقُومٍ
لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنِي قَدْ قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةٍ مَنَّمٍ

وغار الأخ على أخته من أن يتغزلها بشاعر، لأن في غزله تشهيراً بها
وجرحاً لشرف أهلها، وعلم الإصبع بن محسن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته
جفائلاً يميناً لئن عرض لها أو زارها ليقتلها، ولئن عرَّضَ بها في شعره أو
ذكرها ليأسرته ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته في نادي قومه، فبلغ ذلك مالكا، فقال
في قصيدة⁽³⁾:

فَمَا الْحَلْقُ بَعْدَ الْأَسْرِ شَرٌّ بَقِيَّةً مِنْ الصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ وَهِيَ قَرِيبُ
أَحَبُّ هَبُوطِ الْوَادِيَيْنِ وَإِنِّي لَمَشْتَهَرٌ بِالْوَادِيَيْنِ غَرِيبُ
أَحَقُّ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ خَارِجاً وَلَا وَالْجَا إِلَّا عَلَى رَقِيبُ
وَلَا زَائِراً وَحْدِي وَلَا فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا قِيلَ أَنْتَ مَرِيبُ

(1) الأصفهاني، الأغاني: 137/18.

(2) المصدر نفسه: 159/20، انظر الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 285.

(3) الأصفهاني، الأغاني: 83/19.

هل ربيبة في أن تحن نجيباً إلى إلفها أو أن يحن نجيبٌ
لهذا كان الغزل بالأخت يتخذ أحياناً وسيلة للكيد والإغاية والتجريح، كما
تغزل الشاعر قيس بن الخطيم بعمره بذت راحة في تمهيدته للفخر بانتصار الأوس
على الخزرج في يوم بُعث⁽¹⁾:

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَاطَّرَادِ الْمَذَاهِبِ لَعِمْرَةَ وَحْشًا غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ
تَرَأَتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبِ
فرد عليه عبدالله بن راحة عدواناً بعدوان، وتغزل في ليلى بنت الخطيم
أخت قيس⁽²⁾:

أَشَاقَتَكَ لَيْلَى فِي الْخَلِيطِ الْمُجَانِبِ نَعَمْ فِرْشَاشِ الدَّمْعِ فِي الصَّدْرِ غَالِبِي
وكذلك تغزل حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم في فخره بانتصار الخزرج
على الأوس في يوم الربيع⁽³⁾، فأجابه قيس بغزل تناول فيه عمرة زوج حسان.
ومن مظاهر المحبة بين الإخوان الوفاء لهم وعدم نسيانهم وتذكرهم ليلاً
ونهاراً، وصباحاً ومساءً، وهناك أدلة عديدة من الشعر على الوفاء بين الإخوان، من
مثل رثاء الخنساء لأخيها صخر، بقولها⁽⁴⁾:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذَكَّرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
وكذلك قولها⁽⁵⁾:

فَسَوْفَ أَبْكِيكَ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ وَمَا أَضَاعَتْ نُجُومُ اللَّيْلِ لِلْسَّارِي
فعدم نسيان الأخ بعد وفاته دليل على الوفاء والمحبة العميقة بين الإخوان،
ونجد أن الشعراء جميعهم ذكروا ذلك في أشعارهم بأنهم لن ينسوا أحببتهم من
الإخوان، وسوف نتطرق لهذه الجزئية لاحقاً.

(1) ابن الخطيم، قيس (ت: 612م)، (1967) الديوان، ط 2، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار
صادر، بيروت، لبنان، ص10.

(2) المصدر نفسه، ص36.

(3) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص318.

(4) الخنساء، الديوان، ص326.

(5) المصدر نفسه، ص293.

ومن مظاهر الوفاء بين الإخوة حرص الأخلى عدم ترك أخيه، و من ذلك قول عروة بن الورد⁽¹⁾:

فَلَا أَتْرُكُ الْإِخْوَانَ مَا عَشْتُ لِلرَّدَى كَمَا أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ الْمَاءَ شَارِبُهُ
فهو يقول إنه لا يترك الإخوان طوال حياته ، بل إنه سيظل وفيّاً لهم لن ينسأهم ولن يتخلى عنهم.

وبرزت العاطفة تجاه الأخ قوية وصادقة عند عدي بن زيد العبادي، وذلك من خلال الرسالة الشعرية التي بعث بها إلى أخيه وهو في غياهب السجن، مؤكداً صدق عاطفته إزاء أخيه، وحاجته إليه، مبيناً له حالته الصحية التي وصل إليها في سجنه لدى ملك أوثقه بالحديد ظلماً⁽²⁾، فقال في ذلك:

أَبْلُغْ أَبِيًّا عَلَى نَأْيِهِ	وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَرْءُ مَا قَدْ عَلِمَ
بَأَنَّ أَخَاكَ شَقِيقُ الْفَوَا	دِ كُنْتَ بِهِ وَاثِقًا مَا سَلِمَ
لَدَى مَلِكٍ مَوْثِقٍ فِي الْحَدِيدِ	إِمَّا بِحَقٍّ وَإِمَّا ظُلْمٍ
فَلَا أَعْرِفَنَّكَ كَذَاتِ الْغُلَا	مَ مَا لَمْ تَجِدْ عَارِمًا تَعْتَرِمَ
فَأَرْضُكَ أَرْضُكَ إِنْ تَأْتِنَا	تَتَمُّ نَوْمَةٌ لَيْسَ فِيهَا حُلْمٌ

"وما أن تصل هذه الرسالة الشعرية النابضة بالمشاعر والأحاسيس الصادقة إلى أخيه أبيّ ، حتى يجد أخاً عطوفاً مشفقاً عليه يتحدى الصعاب ويقابل الأعداء بقوة وشجاعة، ليصل إليه فيفك أسرهِ ويبدو أن عاطفة أبيّ قد تأججت في صدرهِ ، ولذلك فلم يتوانَ عن تخليص أخيه وافتدائه بالمال والنفس، وقد سعى إلى تحقيق هذا الأمر حتى وإن كان مكان أسرهِ بعيداً عنه ، ومهما واجه من المخاطر الجسام في خلاصهِ مؤكداً بموقفهِ هذا حبه لأخيه، وصدق عاطفته تجاههِ، فقال أبيّ بن زيد وقد كتب إلى

(1) العبسي، عروة بن الورد، (د.ت) الديوان، تحقيق : عبد المعين المملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ص29.

(2) المبييضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص186.

أخيه في سجنه معبراً ع ما يختلج في صدره من مشاعر صادقة تدل على موقفه من أخيه⁽¹⁾:

جز باغٍ ولا ألفٌ ضعيفُ ء طحوناً تضيءُ فيها السيوفُ ت صحيحٌ سربالها مكفوفُ فاعلمن لو سمعت إذ تستضيفُ تلادٌ لحاجة أو طريفُ لم يهْلني بُعدٌ بها أو مخوفُ لا يُعقبك ما يصبوب الخريفُ عزّ هذا الزمانُ والتعنيفُ لجزوعٍ على الصديق أسوفُ لقليلٍ شرواك فيما أطوفُ	إن يكن خأنك الزمان فلا عا ويمينُ الإله لو أن جأوا ذات رزٍ مُجتابةً غمرة المو كنت في حميها لجنتك أسعى أو بمالٍ سألت دُونك لم ينفع أو بأرضٍ أسطيعُ أتيك فيها إن تفتني والله ألفاً فجوعاً في الأعادي وأنت مني بعيدُ ولعمري لئن جرعت عليه ولعمري لئن ملكت عزائي
---	--

وكثيراً ما كان يفتخر الأخ بمساعدة أخيه وتقديم العون له إذا ما وقع في الأسر، فهذا الشاعر علقمة الفحل تحركت مشاعره وعواطفه تجاه أخيه شأس الذي وقع في أسر الحارث بن أبي الشمر في جماعة من تميم، فما كان من علقمة إلا أن ذهب إلى القوم فمدحهم بشعره، حتى وهبهم الحارث له وأطلق سراهم بما فيهم شأس، فقال علقمة الفحل مفتخراً بصنيعه هذا⁽²⁾:

كَانَ لِقَوْمِي فِي الْفِدَاءِ جَدُّ تَسْعِينَ أَسْرَى مُقَرَّنِينَ صُفْدُ طَارَ لِأَطْرَافِ الظُّبَاتِ وَقَدْ أَغْلَلَ مِنْهُمْ وَالْحَدِيدِ عُقْدُ	دَافَعْتُ عَنْهُ بِشِعْرِي إِذْ فَكَانَ فِيهِ مَا أَتَاكَ وَفِي دَافَعَ قَوْمِي فِي الْكَتَيْبَةِ إِذْ فَأَصْبَحُوا عَنْ ابْنِ جَفْنَةَ فِي الْـ
---	---

(1) الأصفهاني، الأغاني: 98/2، والألف: الثقيل المتباطئ. والجأواه الكتيبة تعطف ما تلقاه .
والرزاء صوت الذي يسمع من بعيد . انظر: المبيضين: الأسيرة في الشعر الجاهلي،
ص 187.

(2) ابن تميم، علقمة بن عبده بن ناشرة بن زيد مناة، (1925)، الديوان، شرح : الأعلام
السنتمري، الجزائر، ص 103 - 104، الطبقات: جمع ظبة وهو حد السيف والسنان.

وقال لأحنف بن قيس : خير الإخوان من إن استغنيت لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن كُثررت عضدك وإن استرفدت رفدك⁽¹⁾.
وقال الشاعر⁽²⁾:

إِنَّ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ لَنْ يَدَعَكَ وَمَنْ يُضِرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ زَمَانٍ صَدَعَكَ⁽³⁾ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ
وإن رأكَ ظالماً سعى معكَ

قيل لزرر جمهر : أخوك أحب إليك أم صديقك؟ قال: إنما أحبُّ أخي إذا كان صديقاً⁽⁴⁾.

3.1 الحاجة للأخ:

إنَّ طبيعة الحياة في العصر الجاهلي تقوم على الحروب والنزاعات، وتتسم بالفقر والجذب في الموارد وأمور المعيشة، فلا بُد أن تكون علاقة الإخوة على درجة عالية من التآلف والتآزر ليتحقق لهم مكانة رفيعة في مجتمع قائم على مبدأ القوة والتلاحم، ولقد فهم كثير من أبناء العصر الجاهلي قيمة الأخ وعبروا عنها في كثير من أشعارهم فمن ذلك قول حجية بن المـ ضيب الذي عرف مدى حاجته لأخيه ومدى حاجة الإخوان إلى التعاضد في الحوادث الجمة⁽⁵⁾:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ تَدَعَهُ لَمَلَمَّةٍ يُجْبِكَ وَإِنْ تَغْضَبَ إِلَى السِّيفِ يَغْضَبُ
ويرد الشاعر على زوجه التي تلومه على إكرام أولاد أخيه وإيثارهم على أولاده، فأخذ يبلِّغها منزلة أخيه ومدى حاجته إليه، فهو وحده الذي يقف إلى جانبه،

(1) الأندلسي، العقد الفريد: 150/2.

(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج 3، ص 7.

(3) صدع: فرق وباعد

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ج 3، ص 9

(5) الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس، (1986)، ديوان الحماسة، ط2، شرحه ونشره أحمد أمين

وعبد السلام هارون، ط 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 177/3. وانظر

ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 3، ص 8.

ويغضب لغضبه رافعاً السيف في وجه كل من يحاول الاعتداء عليه أو الانتقاص من قدره ومكانته وكان يقال الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال⁽¹⁾. فلقد جُعِلَ الأخ كاليد التي يبطش بها ويدفع بها الأذى للدلالة على مكانة الأخ ومدى الحاجة إليه ، ولقد عبر عن ذلك النثقي بقوله⁽²⁾:

مَنْ كَانَ ذَا عَضْدٍ يُدْرِكُ ظِلَامَتَهُ إِنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ عَضْدُ
تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَا قَلَّ نَاصِرُهُ وَيَأْنِفُ الضِّيمَ إِنْ أَثَرَى لَهُ عَدَدُ

فيشير الشاعر إلى أن الإنسان الذي له عضد وسند يُدرك ظلامته ويأخذ حقه، أما الذي ليس له معين ومناصر فإنه يعيش ذليلاً؛ لأنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إذا لم يكن لديه عضد ومساندة يحميه فيصبح ذليلاً يُتجرأ عليه وتؤخذ أمواله ودياره ولا يستطيع استرجاعها يقول تنبو يداه من نبا السيف إذا لم يعمل في الـ ضريبة دلالة على الجبن والضعف إذا لم يكن لديه ناصر.

أما إذا كان لديه إخوة وقبيلة فلا يستطيع أحد أن يظلمه وأن يهضم حقه لأن لديهم يدافعون عنه ويناضلون من أجله فلا يقدر أحد أن يسلب حقه ما دام لديه عدد من الإخوان.

ولقد عبر رجل يدعى عبيد الله بن أبي بكرة عن مكانة الأخ وقربه من أخيه، حين جعله كالطائر الذي مع الطيران والحركة بسبب قص جناحيه، وذلك عندما سأله أحدهم بقوله "ما تقول في موت الوالد ؟ قال مَلِكٌ حَادِثٌ، قال: فموت الزوج ؟ قال عرس جديد، قال فموت الأخ ؟ قال: قص الجناح، قال فموت الولد؟ قال: صدع في الفؤاد لا يجبر"⁽³⁾.

ومن ذلك قول الشاعر⁽⁴⁾:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بَغِيرِ سِلَاحٍ

(1) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ج3، ص4.

(2) النثقي هو عمرو بن حبيب أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهلية: أسلم سنة 9 هـ، روى عدة أحاديث، توفي بأذربيجان. المصدر نفسه: ج 3، ص5.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص92.

(4) الأندلسي، العقد الفريد، ج 2، ص150.

وَإِنْ ابْنُ عَمِّ الْمَرْءِ فَاعْلَمْ جَنَاحُهُ وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ

فالشاعر يؤكد ضرورة ولزوم قوف الأخ مع أخيه ، وهذا يؤكد أن الأخ لا يستطيع أن يرفع سيفه هويته في وجه خصمه ، إذا لم يجد حوله إخوة يرى فيهم قوته ومنعته وعزته في مجتمع تعد فيه القوة دستوراً وديناً⁽¹⁾ ، ودلالة على أن الكثرة تعد قوة، قول الذبيبي²: المرء كثير بأخيه⁽²⁾ ولقد كان الآباء في المجتمع الجاهلي يحرصون على أن يكون لديهم عدد كبير من الأبناء ليكونوا من خلالهم مكانة رفيعة ومنعة وعزة لهم ولأبنائهم في مجتمع يعترف بمبدأ الكثرة والقوة.

وقد أدرك الأخ حاجته إلى التلاحم مع إخوته، ولذلك نجد من الشعراء من كان يقف في وجه زوجة التي تضمّر لإخوته الشر، بطردها لهم وإبعادهم عن زوجها الذي يعدّ الملاذ لهم، فلقد غضب بعض الشعراء على أزواجهم وقدموا لهم النصائح كي يحترموا إخوتهم لأنهم السند والعون لهم في شؤون حياتهم كافة، ويبدو هذا المعنى عند الذمّر بن تّولب في قوله يرد على لوم زوجته له على كرمه لإخوته⁽³⁾:

فَإِذَا أَتَانِي إِخْوَتِي فَدَعِيهِمْ يَتَعَلَّلُوا فِي الْعَيْشِ أَوْ يُلْهُوا مَعِي
لَا تَطْرُدِيهِمْ عَنْ فِرَاشِي إِنَّهُ لَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ سَيَخْلُوا مَضْجَعِي

وكذلك أدرك شاعر آخر معنى الأخوة ومدى الحاجة للأخ بعد فراقه ، فنظم أبياتاً تعبر عن مدى الحزن العميق الذي يعيشه بعد فراق أخيه بقوله⁽⁴⁾:

أَخٌ طَالَمَا سَرَّنِي ذِكْرُهُ فَأَصْبَحْتُ أُشْجِي لَدَى ذِكْرِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَغْدُو إِلَى قَصْرِهِ فَأَصْبَحْتُ أَغْدُو إِلَى قَبْرِهِ
وَكُنْتُ أَرَانِي غَنِيًّا بِهِ عَنْ النَّاسِ لَوْ مَدَّ فِي عَمْرِهِ

(1) المبيضين: الأسرة في الشعر الجاهلي، ص 182.

(2) الأندلسي، العقد الفريد، ج 2، ص 150

(3) ابن تولى، النمر، (د.ت) ديوان، تحقيق نوري حموده القيسي، مطبعة المعارف، - بغداد، العراق، ص 73.

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج 3، ص 10، وانظر الأندلسي، العقد الفريد، ج 3، ص 232، مع بعض الاختلاف في الأبيات.

إِذَا جِئْتُهُ طَالِباً حَاجَةً فَأَمْرِي يَجُوزُ عَلَى أَمْرِهِ

فيرى الشاعر أنه غني عن الناس ما دام عنده أخ يساعده ويساعده على أمور الحياة، فلهذا أخ يحترمه ويقدره ويقدم طلب أخيه على نفسه، وفي ذلك دلالة على قوة الترابط والمودة بينهم.

وتجدر الإشارة إلى أن ما يحدد نوع العلاقة بين الإخوة أو مدى تكاتفهم، هو ما يستجد في حياتهم الأسرية والقبلية من ملومات وخطوب، ولا سيما إذا كان الأمر مرتبطاً بنزاع قبلي تسيل فيه الدماء، فينظر الأخ حوله ليجد أخاه الذي يقف إلى جانبه⁽¹⁾، ويعني هذا الأمر أن فقدان الأخ يهدد بقاء إخوته، ويصور هذا المعنى الشاعر يربوع بن حنظلة عندما فقد أخاه، فيقول⁽²⁾:

كَيْفَ بَقَاءَ الْمَرْءِ بَعْدَ ابْنِ أُمِّهِ إِذَا بَرَقَتْ أَوْصَالُهُ كَالْمَحَاجِنِ

وجاء في الأغاني أن جسّاساً بعد أن قتل كليياً قَدِمَ إلى أهله فلما رأته أخته قالت لأبيها: ذا لجسّاس أتى خارجاً رُ كبقا فقال والله ما خرجت رُ كبتاه إلا لأمر عظيم! قال فلما جاء قال: ما وراءك يا بني؟ قال ورأيي أنني قد طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمناً، قال: أقتلت كليياً؟ قال نعم، قال وددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا، ما بي إلا أن تتشام بي أبناء وائل، وبعدها ما كان من جسّاس إلا أن توجه إلى أخيه نضلة بن مرة - كان يُقال له عضد الحمار - فقال له⁽³⁾:

وَإِنِّي قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ حَرْباً تَغْصُ الشَّيْخَ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ
مُذْكَرَةً مَتَى مَا تَصْحُ عَنْهَا فَتَى نَشَبَتْ بِأَخْرَ غَيْرَ صَاحِ
تُتَكَلَّ عَنْ ذُبَابِ الْغِيِّ قَوْمًا وَتَدْعُو آخِرِينَ إِلَى الصَّلَاحِ

فأجابه نضلة:

فَإِنْ تَكُ قَدْ جَنَيْتَ عَلَيَّ حَرْباً فَلَا وَانٍ وَلَا رُثُ السَّلَاحِ

(1) المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص 184.

(2) الأبيدي أبو عبد الله محمد ابن العباس (ت: 310هـ)، (د.ت) الامالي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ص 46؛ المحاجن مفرداً محجن وهو عصا معقفة الرأس كالصولجان.

(3) الاصفهاني، الأغاني، 33/5.

فهذه الأبيات تكشف عن مكانة الإخوة من خلال حاجته الملحة إلى نصرة أخيه، فهو لم يجد أحداً يلجأ إليه ليقف إلى جانبه إزاء هذه الحدث الجلل، إذ إن مقتل كليب أمر ستنشغل به العرب زمناً طويلاً، ولذلك فإن التحام الإخوة في موقف مثل هذا لا مفر منه، ف أجابه نضلة بموقف الشجاع المدافع عن أخيه بقوله لن أتخلي عنك ولست بجبان ولا رث السلاح كي أتركك وحدك⁽¹⁾.

وفي هذا المعنى أيضاً يقول رجل في أخ له يصور مدى حاجته إليه في الملمات والشدائد من الأمور⁽²⁾:

وكنْتُ إذا الشَّدَائِدُ أرْهَقَتْنِي يقومُ لها وأقعدُ لا أقومُ

وكذلك قول كعب الغنوي في رثا لأخيه أبي المغوار الذي كان يعينه على نائبات الدهر وحوادث الأمور، وكان يكفيه إياها بقوله⁽³⁾:

أخُ كَانَ يَكْفِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَتَوَبُّ

وقال شاعر آخر في المعنى نفسه⁽⁴⁾:

أَبْكِي أَخاً يَتَلَقَّانِي بِنَائِلَةٍ قَبْلَ السُّؤَالِ وَيَلْقَى السَّيْفَ مِنْ دُونِي
إِنَّ الْمَنَايَا أَصَابَتْنِي مَصَائِبُهَا فَاسْتَعْجَلَتْ بِأَخٍ قَدْ كَانَ يَكْفِينِي

وقد قال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك : خير الإخوان أقلهم مصانعة في النصيحة، وخير الأعمال أحلاها عاقبة، وخير الإخوان من لم يخاصم، وخير الأخلاق أعونها على الورع، وإنما يختبر ودُّ الرجال عند الفاقة والحاجة⁽⁵⁾.

فابن السماك يبين صفات الأخ الصادق ، وكذلك ينبه إلى أمر مهم، وهو أن الأخ الصادق يختبر عند الحاجة والفاقة أن فلان صادق الإخوة فهو يعين أخاه

(1) المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص182.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 3، ص6.

(3) الأندلسي، العقد الفريد، ج 3، ص233.

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج 3، ص9

(5) القيرواني الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: 453هـ)، (د.ت)، زهر الآداب

وثمر الألباب، ط 1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان،

ص619.

ويساعده كما مر معنا في الشواهد الماضية ^١موا إذا تخلى عنه ولم يساعده ف يعد
محرصاً للقطيعة والهجران واللوم والعتاب كما سيأتي معنا لاحقاً، ومن الشعراء من
أدرك هذا الشعور بأن الأخ محتاج إليه وقت الأزمات كما فعل دريد بن الصمة ، فهو
على أتم الاستعداد إذا ما دعاه أخوه لاويما إن كان الموقف في أرض المعركة ،
فقال مصوراً تلك الحادثة وموقفه منها⁽¹⁾:

دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقُـ____عَدَدٍ
أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلَبَانِهَا بَثَدِي صَفَاءً بَيْنَنَا لَمْ يُجِدْ
فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرَّمَا حُ تَتَوَشَّهُ كَوَقَعَ الصِّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمدِّدِ

فعلى هذا النهج نرى أن النزاعات والصراعات التي قامت في المجتمع
الجاهلي كانت مدعاة لتكاتف الإخوة وصفاء قلوبهم واجتماع كلمتهم، ليشكلوا معاً
حلفاً واحداً يشار إليه بالبنان⁽²⁾.

كذلك نجد الحاجة للأخ عند الضائقة المالية أو الفقر، كما فعلت الخنساء مع
أخيها صخر عندما كان زوجها ينفق مالهم، فذهب لأخيها فتجد ه حلالاً لمشكلاتها
كريماً معها كما مر معنا، وكذلك كانت تلجأ إليه كلما شعرت بالضيق والعسر لتجد ه
يسراً يجلي عنها كل عسر وضائقة، فيبدو ذلك في قولها⁽³⁾:

وَكُنْتُ إِذَا مَا خِفْتُ أَرْدَافَ عُسْرَةٍ أَضَلُّ لَهَا مِنْ خِيفَةٍ أَنْقَرُ
دَعَوْتُ لَهَا صَخْرَ النَّدَى فَوَجَدْتُه لَهَا يُسْراً يُجْلِي بِهِ الْعُسْرُ أَجْمَعُ

فهي تذهب لأخيها كلما شعرت بضائقة مالية فتجده معطاءً لها كريم
غير بخيل، فهو صادق في مشاعره وأحاسيسه تجاه أخته.

4.1 العتاب واللوم:

كانت الحياة العربية قديماً قائمة على العلاقات الاجتماعية المترابطة فيما
بينهم ليكونوا وحدة متماسكة لا يمكن لأي شخص المساس بها أو التعرض لها بأي

(1) الجشمي، الديوان: ص48.

(2) المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص183.

(3) الخنساء، الديوان، ص415.

شكل من الأشكال لكن هذا الأمر لم يكن عند كل فئات المجتمع الجاهلي ، فهناك من الإخوان من كان في وقت الرخاء لا يعرف إخوته ولا يهتم بهم، أما في وقت الشدائد فهم أول من يتذكرهم ويلجأ إليهم ، لأن الأخ إذا ما نزلت به ضائقة لجأ إلى أخيه، مخلفاً وراءه كل ما يحمله من عتاب تجاه أخيه، ومن هذا قول الشاعر ضمرة بن ضمرة يوضح موقفه من أخيه جندب الذي إن أصابته الشدائد وحاً ت به الضائقة التفت إلى أخيه كي يساعده ، وإن أصابه خيرٌ اطمأن به ونسي أخاه ولم يتذكره في حال الرخاء، فشجب الشاعر هذا الموقف مبيناً أن الإخوة تكون في أحوال الرخاء والشدّة، فهي التي تبين الأخ الصادق من غيره ويدل على ذلك بقوله⁽¹⁾:

يا جُنْدَبُ أَخْبِرْنِي وَلَسْتُ بِمُخْبِرِي وَأَخُوكَ نَاصِحُكَ الَّذِي لَا يَكْذِبُ
هَلْ فِي الْقَضِيَّةِ أَنْ إِذَا اسْتَغْنَيْتُمْ وَأَمْنْتُمْ فَأَنَا الْبَعِيدُ الْأَجْنَبُ
وَإِذَا الشَّدَائِدُ بِالشَّدَائِدِ مَرَّةً أَشَجَّتْكُمْ فَأَنَا الْمُحِبُّ الْأَقْرَبُ
وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أَدْعَى لَهَا وَإِذَا يُحَاسُ الْحَيْسُ يُدْعَى جُنْدَبُ

"فإن هذه الأبيات تكشف عن معاتبة بين ضمرة وأخيه جندب التي يبدو فيها الشجب والاحتجاج على صنيعة أمعه، إلا أنها تدل على مدى حاجة الأخ إلى أخيه ليشدّ به أزره في الشدائد والملمات".

وفي هذا المعنى تقول العرب : (معاتبة الأخ بغير من فقده)⁽²⁾ ، وقد قال الشاعر⁽³⁾:

إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وَدٌّ وَيَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ
ومن ذلك معاتبة أم حاتم الطائي لإخوتها لأنهم يلومونها على كرمها فقالت⁽⁴⁾:
وَمَاذَا تَرَوْنَ الْيَوْمَ إِلَّا طَبِيعَةً فَكَيْفَ بَتَرَكِي يَا ابْنَ أُمِّي الطَّبَائِعَا؟

(1) أشجبتكم: أصابتكم، والحيطة بام يتخذ من التمر والسمن وهو مفضل عندهم، انظر :

المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص180.

(2) الأندلسي، العقد الفريد، ج 2، ص152.

(3) المصدر نفسه، ص152.

(4) اليزيدي، الأمالي، ص23.

فالأخت هنا تعاتب إخوتها على حجرهم عليها ومنعهم لها من الكرم، وخاصة أن الكرم صفة متأصلة فيها لا تستطيع أن تتخلّى عنها لأنها طبيعة فيها. وقد فرضت الحياة عليهم اللوم بقسوة ولا ريب في ذلك، فهي حياة مليئة بالخوف والجوع والفقر والحاجة، فالأخ ينتظر من أخيه أن يمد له يد العون ليجابه بها الحياة القاسية، ولكن الأخ ينصرف عن أخيه ولا يسانده ، وقد ذكر الشماخ بن ضرار أنه لما أثقل الدين كاهله، بحث عن أخيه كي يساعده لكن الأخ تخلّى عنه في أصعب الظروف وتعذر له، فقال مخاطباً أخاه يلومه عن تخليه عنه⁽¹⁾:

تَذَكَّرْتُ لَمَّا أَثْقَلَ الدِّينُ كَاهِلِي وَصَانَ يَزِيدُ مَالَهُ وَتَعَذَّرَا

فالشاعر يلوم أخاه لأنه ضن عليه بالمال، ولم يسانده في أمور عيشه.

كذلك لام الإخوان أختهم على تفريطها في المال وتضييعها له بداعي الكرم، وقد أشار البغدادي في ذيل الأمالي والنوادر إلى أن غنية بنت عفيف أم حاتم من سلخى النساء وأقهر اللضيف وكانت لا تليق، أي لا تُبقي شيئاً تملكه، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوا مالها لكي لا تبذر ، فقالت مخاطبة إخوتها بهذا البيت⁽²⁾:

فَمَاذَا عَسَيْتُمْ أَنْ تَقُولُوا لِأُخْتِكُمْ سِوَى عَذْلِكُمْ أَوْ عَذْلٍ مَنْ كَانَ مَانِعاً

كذلك لامت الأخت أختها على فعله كما فعلت جلييلة بنت مرة بن ذهل عندما قتل جسّاس زوجها كليبقف قالت أبياتاً مليئة بالحسرة والحزن على زوجها وأخيها ، لأن زوجها قُتل، وكذلك سوف يُقتل أخوها فبعثت أبياتاً تلوم فيها أخاها على فعله فقالت⁽³⁾:

جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسَّاسٍ فَيَا حَسْرَتِي عَمَّا أَنْجَلْتُ أَوْ تَنْجَلِي
فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعُ ظَهْرِي وَمَذْنُ أَجَلِي

(1) الذبياني، الشماخ بن ضرار، (د.ت) الديوان، ط1، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، ص131.

(2) اليزيدي، الأمالي، ص23

(3) الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس، (ت: 231هـ)، (د.ت) كتاب الوحشيات، ط 3، علق عليه عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص204.

لَوْ بَعَيْنٌ فُقِيتَ عَيْنِي سَوَى
أُخْتَهَا فَانْفَقَاتِ لَمْ أَحْـفَلْ

وقد لامت ليلي إختها على عدم إنقاذهم لها من أسرها بأبيات تقطع نياط
القلب عندم أسرها الفرس فبعثت هذه الأبيات لتشد عل الحماس في قلوب إختها كي
يهبوا لإنقاذها، فقالت(1):

يَا كَلْبُوبَ وَعَقِيلًا إِخْوَتِي
يَا جُنَيْدًا أَسْعِدُونِي بِالْبُكَاءِ
عُذِّبْتُ أُخْتُكُمْ يَا وَيْلَكُمْ
بِعَذَابِ النَّكَرِ صُبْحًا وَمَسَا
غَلَّلُونِي قَيْدُونِي ضَرَبُوا
مَلَمَسَ الْعِفَّةِ مِنِّي بِالْعَصَا

ومن هذا الباب نتطرق إلى اللوم والتوبيخ لترك الأخ في أرض المعركة
والتخلي عنه، وهذا مما يلحق المهانة والمذلة هو من ذلك أن عمرو بن كلثوم عَـ يَرَّ
حجر بن أبي شمر الغساني عندما قتل عمرو أخاه وابن عم له يقال له عامر بن أبي
حجر، فقال عمرو بن كلثوم(2):

هَلَّا عَطَفْتَ عَلَى أَخِيكَ إِذَا دَعَا
بِالتَّكْلِ وَيْلَ أَبِيكَ يَا ابْنَ أَبِي شَمْرِ
غَادَرْتَهُ مِزْعَ الرِّمَاحِ وَأَسْهَلْتَ
لَكَ وَرْدَةَ كَالسَّيْدِ طَامِيَةً الْخَفَرُ
فَذُقْ الَّذِي جَسَمْتَ نَفْسَكَ فَاحْتَسِبْ
مِنْهَا أَخَاكَ وَعَامَرَ بْنَ أَبِي حُجْرٍ
وكذلك هجا أوس بن حجر الطفيل بن مالك و عيره بترك أخيه في أرض
المعركة بقوله(3):

لَعَمْرِكَ مَا آسَى طُفِيلَ بْنَ مَالِكٍ
بَنِي أُمِّهِ إِذْ ثَابَتَ الْخَيْلِ تَدَّعِي
فِرَارًا وَأَسْلَمْتَ ابْنَ أُمِّكَ عَامِرًا
يُلَاعِبُ أَطْرَافَ الْوَشِيحِ الْمُرْعَزِ
وهذا يؤكد أن التخلي عن الإخوان عند العرب يُعدُّ عيباً ومدعاة للهجاء
والمذلة، ومقابل هذا الموقف فإن قطيعة الأخ أمر يلحق المهانة والمذلة بالإخوة

(1) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص72.

(2) ابن كلثوم، عمرو (ت: 600م)، (1991) الديوان، ط 1، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار
الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 13، التكلفة الولد أو الحبيب، المزع، القطع، طامية :
شديدة، أخفر الفرس وثب في عدوه.

(3) الطائي، ديوان الحماسة، ص13، تدعي: تتلاحق وتعز، الوشيح: الرماح

ويهدم ما بنى من عز وجاهٍ لأفراد الأسرة ، وفي ذلك يقول المهلهل بن ربيعة مؤكداً مكانة الأخ(1):

أخٌ وحريمٌ سيئٌ إنْ قَطَعَتْهُ
وَسُنَّةُ عَزْمٍ هَدَمُهَا لَكَ هَادِمٌ
وقال أيضاً(2):

وكل حميمٍ أو أخٍ ذي قرابةٍ
لَكَ الْيَوْمَ حَتَّى آخِرِ الدَّهْرِ لَائِمٌ
ومهما يكن من أمر فإن طبيعة الحياة في العصر الجاهلي فرضت الترابط والتلاحم بين الإخوة ولذلك انبعثت أهميتها في المجتمع الجاهلي وجاءت استجابة فؤادهم للظروف التي فرضتها حياة الصحراء على أبناء المجتمع الجاهلي ، وبخاصة ما ارتبط بالعصبية القبلية آنذاك(3).

(1) المهلهل، عدي بن ربيعة (ت: 530هـ)، (1995)، الديوان، ط1، تحقيق: أنطوان محسن

القول، دار الجبل، بيروت، لبنان، ص76

(2) المصدر نفسه، ص77

(3) المبييضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص185.

الفصل الثاني الأخ سيداً ومحارباً

1.2 سيادة الأخ للقبيلة:

إن صورة سيد القبيلة تحتل مكانة عالية في الشعر الجاهلي، فقد أضيف الشعراء صفات تصل به أحياناً إلى مرتبة التقديس : "والسيد يمثل بطلاً عظيماً من أبطال القبيلة، وبه يقتدي بقية الأبطال، وقد وقف العرب طويلاً عند صفاته التي يجب أن يتصف بها، واشترطوا أن يكون جامعاً بجوانب البطولة المختلفة كأن يتحمل أذى قومه، ولذلك قيل للسيد (حتمل أذى قومه)، وأن يكون شريفاً في أفعاله حليماً يغض نظره عن أعمال الحمقى والجهلة، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء الجاهليين، فلا يغضب ولا يثور، وأن يكظم غيظه. جاء في المثل (احلم تسد). وأن يحترم الناس مهما كانت منازلهم، وأن يؤلف بينهم، ويكتسب محبتهم ، وأن يكون ملاذهم وأن يجعل بيته بيتاً للجميع، ومضيفاً لكل من يغد إليه من كبير أو حقير أو صغير، وأن يفتح قلبه للجميع وعليه أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه"⁽¹⁾.

ولهذا فإن الصفات التي يتحلى بها السيد مهمة ولا يشترط في سيد القبيلة أن تجتمع فيه كل الصفات السابقة فقد يتفرد به بعض هذه الصفات دون الأخرى ، وقد اختلفت شروط السيادة من قبيلة إلى أخرى قال الجاحظ في شرائع المروءة : "كانت العرب تسود على أشياء أما مضر فتسود ذا رأيها، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام، وأما اليمن فعلى النسب، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان، وصار في الإسلام سباقاً وقيل لقيس بن عاصم ثم سدت قومك؟ قال : ببذل الندى وكف الأذى ونصرة

(1) دراوشة، صلاح الدين أحمد، (2001)، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، ط1، مكتبة الفجر، عمان، الأردن، ص90.

المولى وتعجيل القرى . وقسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . قال بعضهم:
السؤدد اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة⁽¹⁾.

وإذا طالعنا صورة الأخ السيد في الشعر الجاهلي فإننا نجد أبياتاً كثيرة ضمن
قصائد كاملة تتحدث عن سيادته ومجده وعلو مكانته في القبيلة، بل قد يصل الحد
من علو مكانته أن يكون سيد السادات وقد دانت له الناس وانقادت، ومن ذلك قول
المهلهل بن ربيعة يصف أخاه كليباً⁽²⁾:

سَيِّدُ سَادَاتٍ إِذَا ضَمَّهْمُ مُعْظَمُ أَمْرِ يَوْمِ بُؤْسٍ وَضَيْقٍ
لَمْ يَكُ كَالسَّيِّدِ فِي قَوْمِهِ بَلْ مَلِكٌ دِينَ لَهُ بِالْحَقِّ

وبيين المهلهل شرف النسب والمنزلة والشجاعة والإقدام التي تمثلت في
شخص أخيه كليب، فيخضع له سادة الأقسام فقال⁽³⁾:

وَأَعْرَ مِنْ وَلَدِ الْأَرَاقِمِ مَاجِدٍ صَلَّتِ الْجَبِينَ مُعَاوِدِ الْأَقْدَامِ
خَلَعَ الْمُلُوكَ وَسَارَ تَحْتَ لَوَائِهِ شَجَرُ الْعُرَى وَغَرَايِرُ الْأَقْوَامِ

ومن خصال الأخ السيد أنه حلیم يعفو عند المقدرة، كما أنه يحمي من يستجير
به، وفي ذلك يقول المهلهل بن ربيعة واصفاً أخاه كليباً⁽⁴⁾:

وَأِنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجَالٍ وَتَعْفُو عَنْهُمْ وَلَكَ اقْتِدَارُ
وَتَمْنَعُ أَنْ يَمَسَّهُمْ لِسَانٌ مَخَافَةَ مَنْ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

وكان كليب يحمي أهله ويقودهم بشجاعة في مواجهة الجيش العظيم ، وما ذلك
إلا من فعل سادة القبائل ويقول المهلهل في ذلك⁽⁵⁾:

أَكْلِبُ مَنْ يَحْمِي الْعَشِيرَةَ كُلَّهَا أَوْ مَنْ يَكُرُّ عَلَى الْخَمِيسِ الْأَشْوَسِ

(1) الألويسي، بلوغ الإرب: 187/2.

(2) المهلهل، ديوانه، ص57.

(3) المصدر نفسه، ص83.

(4) المصدر نفسه، ص29.

(5) المصدر نفسه، ص49.

ويغضب المهلهل شديداً حين يعرض عليه أن يقدم له رجلاً ليقتله ثأراً
بأخيه كليب، فيقول (1):

وَمَنْ لَيْسَ بِذِي مِثْلِ	فَتَأْتُمْ سَيِّدَ النَّاسِ
وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالرَّجُلِ	وَقُلْتُمْ كَفُوهُ رَجُلٌ
مِثْلَ الرَّجُلِ النَّذْلُ	وَلَيْسَ الرَّجُلُ الْمَاجِدُ

فيراهل أن أخاه في سيادته وعزته لا يعدله رجل ، بل إنه يعدل في مكانته ألف رجل من السادة وأصحاب الشأن والمنزلة الرفيعة:

فَتَى كَانَ كَأَلْفِ مَنْ ذَوِي الْإِنْعَامِ وَالْفَضْلِ (2)
وتتحدث الخنساء عن سيادة أخيها صخر ومجده وعلو مكانته في قبيلته ، كما تشير أيضاً إلى أنه شريف النسب فتقول (3):

مُورَثُ الْمَجْدِ مَيْمُونٌ نَقِيبٌ تُهُ	ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ فِي الْعِزَاءِ مِغْوَارُ
فَرْعٌ لِفَرْعٍ كَرِيمٍ غَيْرِ مُؤْتَشَبٍ	جَلْدُ الْمَرِيرَةِ عِنْدَ الْجَمْعِ فَخَارُ

وتجعل الخنساء من أخيها صخر سداً يداً يخضع له الناس جميعاً ويقومون له إجلالاً وتقديراً، فتقول (4):

مَلِكٌ مَاجِدٌ يَقُومُ لَهُ النَّا	سُ جَمِيعاً قِيَامَهُمْ لِلْهَلَالِ
------------------------------------	-------------------------------------

كما تبين الخنساء تحلي صخر بالكرم الشديد الذي يصل إلى حد أنه يكفي قومه، والكرم من الصفات التي يجب أن يتحلى به سيد القبيلة، فتقول (5):

وَإِنَّ صَخْرًا لَكَافِينَا وَسَيِّدَنَا
وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ

(1) المهلهل، الديوان، ص 69.

(2) المصدر نفسه، ص 69.

(3) الخنساء، الديوان، ص 389.

(4) المصدر نفسه، ص 347.

(5) المصدر نفسه، ص 385.

وقد ساد صخر قبيلته بحمايته وشجاعته في الدفاع عن أهله في الحروب ،
وفي ذلك تقول الخنساء⁽¹⁾:

قَدْ كَانَ فِيكُمْ أَبُو عَمْرٍو يَسُودُكُمْ نِعَمَ الْمُعَمَّمِ لِلدَّاعِينَ نَصَّارُ
صَلْبُ النَّجِيزَةِ وَهَابٌ إِذَا مَنَعُوا وَفِي الْحُرُوبِ جَرِيءُ الصَّدْرِ مَهْصَارُ
وقد تتحقق السيادة للأخ في سن الشباب والفتوة ، وذلك لاجتماع الخصال التي
تؤهله إلى سيادة قومه، ويظهر هذا المعنى في قول الخنساء في أخيها صخر⁽²⁾:

رَفِيعُ الْعِمَادِ طَوِيلُ النَّجَا دَسَادَ عَشِيرَتِهِ أُمُورِدَا
إِذَا بَسَطَ الْقَوْمُ عِنْدَ الْفَضَالِ أَكْفَهُمْ تَبْتَغِي الْمَحْمَدَا
وَكَاَنَّ ابْتِدَارُهُمْ لِلْعُلَى أَشَارَ فَمَدَّ إِلَيْهَا يَدَا
فَنَالَ اللَّيِّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مِنْ الْمَجْدِ ثُمَّ انْتَمَى مُصْعِدَا
فهو تشير إلى ما يتصف به صخر من صفات الخير وطلب المجد مما جعله
يسود قومه في سن الشباب.

وتؤكد الخرنق بنت بدر في رثائها لأخيها طرفة بن العبد سيادته لقبيلته في
سن الشباب، فتقول⁽³⁾:

عَدَدْنَا لَهُ خَمْسًا وَعَشْرِينَ حَجَّةً مَقَلَّتَوْفَاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا
وإن قُتِلَ سيد القبيلة فإنَّ ذلك يعد جريمة شنعاء خاصة إذا كان قاتله من أبناء
العمومة، وفي هذا المعنى يصور المهلهل عظم الأمر الذي قام به جساس، والمتمثل
في قتل أخيه كليب سيد القوم⁽⁴⁾:

لَيْسَ أَمْرٌ لَمْ يَعْذُ فِي بَغْيِهِ غَبَاهُ تَخْرِيقُ رِيحِ خَرِيقُ
كَمْ تَعَدَّى بَغْيُهُ إِلَى قَوْمِهِ طَارَ إِلَى رَبِّ اللِّوَاءِ الْخَفُوقُ
إِلَى رَئِيسِ النَّاسِ وَالْمُرْتَجَى لِعُقْدَةِ الشَّدِّ وَرَتَقِ الْفُتُوقُ

(1) الخنساء، الديوان، ص380؛ النجيزة: الطبيعة.

(2) المصدر نفسه، ص143 - 144.

(3) ابن هفان، الخرنق بنت بدر، (د.ت) الديوان، رواية أبي عمرو بن العلاء، تحقيق : يسرى

عبد الغني عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص15.

(4) المهلهل، الديوان، ص54.

ولمكانة أخيه كليسيد القوم يطلب المهلهل من النساء أن يبكينه حزناً وألماً
لفقده متسائلاً عن سیکفل الأيتام بعده عند القحط، يقول (1):

فَابْكِينَ سَيِّدَ قَوْمِهِ وَانْدُبْنَهُ شُدَّتْ عَلَيْهِ قَبَاطِي الْأَكْفَانِ
وَابْكِينَ لِلْأَيْتَامِ لَمَّا أَقْحَطُوا وَابْكِينَ عِنْدَ تَخَاذُلِ الْجِيرَانِ

وتخاطب الخنساء عينيها وتلح عليهما بالبكاء على أخيها صخر سيد القوم،
فتقول (2):

أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَرِيءَ الْجَمِيعَ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا
ومما سبق يتضح ما للأخ السيد من مكانة رفيعة تصل إلى أعلى الدرجات ،
بل قد تصل إلى حد التقديس.

وتتعالى صرخات الشاعرة لجاهلية وهي ترثي أباها بأصوات متواترة،
وآهات متوالية، فها هي رائطة بنت شيطم تتحسر على مقتل أخيها السيدين
الحاميين للأعراض، وتحزن على فراق كل ما عهدته منهما من مكارم الأخلاق،
ونجدة وبأس، وحذق ورباطة جأش، تقول (3):

لَهْفِي عَلَى الْأَخَوَيْنِ كَالْأَسَدَيْنِ مَسْدُ عُودٍ وَحَاتَمُ
السَّيِّدَيْنِ الْمَانِعَيْنِ الذَّاكِرَيْنِ عَنِ الْمَحَارِمِ
الْفَاتِقَيْنِ الرَّاتِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ إِلَى الْمَكَارِمِ

فهي ترى في أخيها صفات السيادة الحقة من الشجاعة التي هي من خصال
الأسود، ودفاعهما عن المحارم وسبقهما إلى المكارم.

(1) المهلهل، الديوان، ص88.

(2) الخنساء، الديوان، ص143.

(3) ابن منقذ، (1412هـ) المنازل والديار، تحقيق : مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح،
القاهرة، مصر، ص448.

والرئيس قد يكون كاهناً أيضاً وقد لا يكون، ومع ذلك فهو مقدس .. وكان صخر بن عمرو بن الشريد الذي خلده أخته الخنساء في رثائها يتكهن، وكان بنو سليم قد توجهوا وأمروه عليهم⁽¹⁾.

وتتوجع ناجية أخت هـ رم بن ضمضم على موت أخيها الفارس السيد، فتقول في حسرة⁽²⁾:

لَهْفَ نَفْسِي لَهْفَةَ الْمَفْجُوعِ أَلَّا أَرَى هَرِمًا عَلَى مَوْدُوعِ
مِنْ أَجْلِ سَيِّدِنَا وَمَصْرَعِ جَنْبِهِ عَلَقَ الْفُؤَادُ بِحَنْظَلٍ مَجْدُوعِ
ففقد الأخ السيد مصاب جل، لذا فإن في هذا المصاب ألماً وحسرة تواجهه الأخت التي كانت ترى فيه السيد والنصير.

"ولسادات القبائل بحكم منازلهم ومكانتهم في قومهم امتيازات وحقوق ولهم في مقابلها واجبات عليهم أدبيا تبعة القيام بها لرعايتهم، وهم أفراد القبيلة . وفي جملة حقوق سيد القبيلة حق المربع، وهو حقه في أخذ ربع الغنائم إذا وقع الغزو"⁽³⁾.

"ولسيد القبيلة حق (الحمى) هو من إمارات عزه وشرفه وسيادته . فكان إذا مر سيد القبيلة برمضة أعجبه، أو بغدير أعجبه، أعلن حمايته عليها أو عليه إلى حد يعينه ويثبتته ، فلا يقترب أحد من ذلك الحد، وهو في ذلك مثل الملوك في هذا الحق ولهذا لم يتمتع بهذا الحق إلا سادات القبائل الكبار أصحاب العز والجاه وكثرة العدد، مثل (كليب وائل) سيد ربيعة، وكانت رئاسة مضر وربيعه له في أيامه، وكان من عزه أنه إذا مر بمكان أعجبه كنع كليباً له ثم رمى به هناك، فلا يسمع عواء ذلك الكليب أحد، فيقرب ذلك الموقع. فكان يقال: (أعز من كليب وائل)"⁽⁴⁾.

(1) الشوري، مصطفى عبد الشافي، (1996)، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، ص68.

(2) الأصفهاني، الأغاني: 146/17، مودوع: فرس هرم، مجدوع: سيء الغذاء.

(3) علي، جواد، (د.ت) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، دار العالم للملايين، بيروت، لبنان، 264/5.

(4) المرجع نفسه، ص267.

"وذكر إن (كليب وائل) كلت غطرساً، حتى كانت غطرسه هذه سبب قتله .
وإلى ظلمه وتعسفه، وأخذ الحمى، أشار العباس بن مرداس إلى ذلك بقوله⁽¹⁾:

كَمَا كَانَ يَغِيهَا بِظُلْمِهِ مِنْ الْعِشْرِ حَتَّى طَاحَ وَهُوَ قَتِيلُهَا
على وائل إذ يتركُ الكلبَ نابحاً وإذ يمنع الأفناء منها حلولها "

ولعل في الإشارة السابقة ما يبين أنه ليس من الضروري اجتماع وتوافر الصفات النبيلة كلها للأخ السيد وهذا ما وجدناه في كليب وائل الذي مال عن العدل بظلمه.

ويحاول الأخ أن يُضفي صفات السيادة التي يراها في أخيه الفقيد ومن ذلك قول لبید بن ربیعة في رثائه لأخيه أريد⁽²⁾:

مِنْ كُلِّ كَهْلٍ كَالسِّنَانِ وَسَيِّدٍ صَعَبَ الْمَقَادَةِ كَالْفَنِيْقِ الْمَصْعَبِ
فيصف أخاه بأنه لا يقاد لكرامته على أهله وهذه من صفات السيادة.
ومن مظاهر الشرف والسيادة أيضاً عند الجاهليين أن يكون رأي السيد مطاعاً
في قبيلته، تقول الخنساء⁽³⁾:

وَرَأْيُهُ حُكْمٌ وَفِي قَوْلِهِ مَوَاعِظٌ يُذْهِبْنَ دَاءَ الْعَلِيلِ

ومن خلال النماذج السابقة لصورة الأخ السيد في الشعر الجاهلي نجد أن أنه قد حظي بمكانة عالية تصل إلى حد التقديس بما توافر فيه من شروط السيادة وخصالها وإن لم تكتمل فيه كلها ولكن كان جديراً بالسيادة.

2.2 صورة الأخ في الحرب:

إن إتقان فنون القتال والبطولة الحربية التي تقوم على الكر على العدو مظهر شجاعة وقوة وهي صورة نراها تتكرر في الشعر الجاهلي ، حيث إن حياة العرب

(1) السلمي، العباس بن مرداس، (1991) الديوان، تحقيق : يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان: 85.

(2) العامري، لبید بن ربیعة (ت: 35هـ)، (1984) الديوان، ط 2 بحقه وقدم له : إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ص157.

(3) الخنساء، الديوان: 309.

في الجاهلية قائمة على الحروب والنزاعات بين القبائل لأسباب شتى وعندما نتناول صورة الأخ المحارب المقاتل فإننا نجد لها بارزة في شعر الرثاء ومن ذلك قول المهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب ، حيث يصور براعة أخيه في قيادة القبائل يوم خزاز وفيه قهرت ربيعة ومضر جموع اليمن، فيقول(1):

مَنْ عَرَفْتَ يَوْمًا خَزَازٌ لَهُ	عُلْيَا مَعَدٌّ عِنْدَ أَخَذِ الْحُقُوقِ
إِذَا أَقْبَلَتْ حَمِيرٌ فِي جَمْعِهَا	وَمَذْحِجٌ كَالْعَارِضِ الْمُسْتَحِقِّ
وَجَمْعُ هَمْدَانَ لَهُ لَجَبَةٌ	وَرَايَةُ تَهْوِي هُوِيَّ الْأَنْثُوقِ
تَلْمَعُ لَمَعَ الطَّيْرِ رَايَاتُهُ	عَلَى أَوَاذِي لُجٍّ بَحْرِ عَمِيقِ
فَاحْتَلَّ أَوْزَارُهُمْ أَزْرُهُ	بِرَأْيِ مَحْمُودٍ عَلَيْهِمْ شَفِيقِ
وَقَلَدَ عَلَيْهِمُ اللَّقَا هَبْوَةً	ذَاتُ هِيَاجٍ كَلْهَيْبِ الْحَرِيقِ
فَقَلَدَ الْأَمْرَ بَنُو هَاجِرِ	مِنْهُمْ رَيْسًا كَالْحُسَامِ الْبَرِيقِ
مُضْطَلَعًا بِالْأَمْرِ يَسْمُو لَهُ	فِي يَوْمٍ لَا يَنْسَاغُ حَلْقُ بَرِيقِ
ذَاقَ وَقَدْ عَنَّا لَهُمْ عَارِضٌ	كَجُنْحٍ لَيْلٍ فِي سَمَاءِ بَرُوقِ
فَانْفَرَجَتْ عَنْ وَجْهِهِ مُسْفِرًا	مُنْبَلَجًا مِثْلَ انْبِلَاجِ الشُّرُوقِ
فَذَاقَ لَا يُوفِي بِهِ غَيْرُهُ	وَلَيْسَ يُلْقَى مِثْلُهُ فِي فَرِيقِ

فيصف المهلهل أخاه كليباً بحسن القيادة ودرايته بالحروب وخوضها وعدم مهابته للقاء عند اشتداد المعركة فيحقق النصر للقبيلة تحت قيادته.

وفي قصيدة أخرى يصف المهلهل أخاه كليباً بقدرته على الهجوم على الفرسان المدججين بالسلاح، وكيف أنه يضرب الكتبية بالسيف ضرباً متتابعاً بكل مهارة وتمكن من فنون المبارزة والضرب بالسيف، فيقول(2):

وَكُلَيْبٍ سُمِّ الْفَوَارِسِ إِذْ حُمَّ	رَمَاهُ الْكُمَاةُ بِالْأَيْفَاقِ
أَرْهَضَ يَضْرِبُ الْكَتِيبَةَ بِالسَّيْفِ	دِرَاكًا كَلَاعِبِ الْمَخْرَاقِ

(1) المهلهل، ديوانه، ص 54، 55، 56؛ المستحيق: المحيط؛ اللحية: ارتفاع الأصوات؛ الهفوه :

التقطع؛ الهبوة: الغبار؛ لا ينساغ حلق بريق: كناية عن جفاف الفم من الخوف.

(2) المصدر نفسه، ص 61، دراكاً أي ضرباً متتابعاً، المخراق : خرقة تقتل يتضارب بها

الأولاد، الكمأة: جمع كمي، وهو الفارس المدجج بالسلاح.

وتصف الخنساء براعة أخيها معاوية في قتال جموع الأبطال وضربهم
بالسيف، فتقول (1):

وَخَيْلٍ تَكْدُسُ مَشْيَ الْوُعُولِ نَازِلَتِ بِالسَّيْفِ أَبْطَالَهَا

وتصف في القصيدة نفسها قوة أخيها معاوية ومهارته في القتال عندما تتكبد
الخيول ويلتقي الفرسان ، فتفر الخيل من أمامه ويطعننها في ظهورها فتفرع النساء
وتولي هاربة، ومعاوية يتعقب الكتيبة بشجاعة يرميها بالرمح (2):

بِمُعْتَرِكٍ بَيْنَهَا ضَيْقٍ	مَجَرِّ الْمَيِّتَةِ أَذْيَالَهَا
تُطَاعِنُهَا فَإِذَا أَذْبَرَتْ	بَلَلَتْ مِنَ الدَّمِ أَكْفَالَهَا
وَبَيْضٍ مَنَعَتْ غَدَاةَ الصَّيَا	حِ تَكْشِفُ لِلرَّوْعِ أَذْيَالَهَا
وَهَاجِرَةً حَرُّهَا وَاقْدُ	جَعَلَتْ رِدَاءَكَ أَظْلَالَهَا
وَصَخْرَةً بُلُغِ تَعْرِقَتِهَا	عَسِيرًا فَأَسْرَعَتْ إِذْلَالَهَا
لَهَا مِشْفَرٌ سَابِغٌ طَوْلُهُ	وَلَا عَيْنَ فِيهَا وَلَا فَالَهَا
وَمُجْمَعَةٌ سُقَّتْهَا قَاعِدَا	فَأَعْلَمَتْ بِالرُّمْحِ أَغْفَالَهَا

وفي قصيدة أخرى رثت الخنساء أخاها صخرًا فأشارت إلى قدرته على قيادة
الجيش في قوة وشدة، وتضيف عليه صفات الجمال وبلاغة القول التي تزيد من شأنه
في قيادته للجيش، فتقول (3):

جَلْدُ جَمِيلٍ الْمُحْيَا كَامِلٌ وَرِعٌ	وَلِلْحُرُوبِ غَدَاةِ الرَّوْعِ مِسْعَارُ
حُلُوٌ حَلَاوَتُهُ فَصْلُ مَقَالَتِهِ	فَاشِ جَمَالَتِهِ لِلْعَظْمِ جِيَارُ
حَمَالُ الْوَيْةِ هَبَّاطُ أَوْدِيَةِ	شَهَادُ أُنْدِيَةِ لِلْجَيْشِ جَرَارُ

(1) الخنساء، ديوانها، ص86.

(2) المصدر نفسه، ص 92، 93، 94، 95؛ المشفر: لا يقال إلا للبعير، وإنما قيل لمشافر الجيش
تشبيهاً بمشافر الإبل.

(3) المصدر نفسه، ص387.

ويقول أعشى بـاهله في رثاء أخيه المنتشر مبرزاً صفات الشجاعة والإقدام والدهاء في الحروب، فهو يغير على الأعداء ويصبحهم قبل طلوع الشمس⁽¹⁾:

أخو حُرُوبٍ وَمَكْسَابٍ إِذَا عَدَمُوا وفي المَخَافَةِ مِذَاهُ الْجِدِّ وَالْحَذَرُ
مُرْدِي حُرُوبٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ كَمَا أَضَاءَ سَوَادُ الطَّيْخَةِ الْقَمَرُ
لَا يَأْمَنُ النَّاسُ مَمْسَاهُ وَمَصْبَحَهُ في كُلِّ فَجٍّ وَإِنْ لَمْ يَفْزُ يُنْتَظَرُ
الْمُعْجَلُ الْقَوْمَ إِذْ تَغْلِي مَرَاجِلُهُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَلَمَّا يَفْسَحِ الْبَصَرُ

ويصف عمرو بن كلثوم مهارة أخيه مرةً وفروسيته وقدرته على البطش بالعدو في ساحة القتال، فيقول⁽²⁾:

وَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ مُرَّةٍ فَارِساً غَدَاةَ دَعَا السَّفَاحُ يَا لَبَنِي السَّجْبِ
وَمَا كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ تَيْمٍ أُرُومَةٍ لَا وَعَبْدٍ وَدٍّ فِي النَّصَابِ وَلَا الصُّلْبِ
وَزَلَّ ابْنُ كُلْثُومٍ عَنِ الْعَبْدِ بَعْدَمَا تَبَرَّأَ لَهُ مِنْ خَالِدٍ وَبَنِي كَعْبِ

ويصف بشر بن أبي خازم أخاه سميراً بأنه صاحب مهارة قيادية يستطيع اجتياز الصحراء، فيتبعه الفرسان مسرعين والخيول تنثير الغبار، فيقول⁽³⁾:

وَالْقَائِدَ الْخَيْلَ فِي الْمَ فَوْزَةٍ وَالْـ جَذْبَ يُسَاقُونَ خِيفَةً سَرَعَا
الْأَبْسَ الْخَيْلَ فِي الْعَجَاجَةِ بِالْـ خَيْلٍ تَسَاقَى سِمَامَهَا نُقْعَا

(1) العواجي، محمد بن جرمان، (1415هـ) في شعر الرثاء الجاهلي، ط 1، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة، السعودية، ص 95، القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، (د.ت) جمهرة أشعار العرب، حققه: محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، سوريا، ص 255، مردي: الذي يردى به في الحروب.

(2) ابن كلثوم، الديوان، ص 85.

(3) ابن أبي خازم، بشر، (1972) الديوان، ط 2، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ص 84.

وتصف أسماء بنت ربيعة أخاها كليباً مشيرة إلى بطولته في القتال ، حيث تفر
خيول الأعداء من مهابته⁽¹⁾:

بَطَلُ ضِرْغَامَةٍ حِينَ بَدَا تَحْتَهُ الْأَشْقَرُ مِثْلَ التَّنْفُلِ
مَنْ تَفَرُّ الْخَيْلُ فِي الرَّوْعِ لَهُ بَطَلٌ مِثْلَ هَزْبَرٍ مُشْبِلِ
وتقول جنوب أخت عمرو ذي الكلب واصفة أخاها في القتال بقوة فتكه
بأقرانه حتى إن الحسنة في السبي تخرج خاضعة له⁽²⁾:

المُخْرَجُ الْكَاعِبَ الْحَسَنَاءَ مَذْ عِنَةً فِي السَّبْيِ يَنْفَحُ مِنْ أَرْدَانِهَا الطَّيِّبِ
فَلَمْ يَرَوْا مِثْلَ عَمْرٍو مَا خَطَّتْ قَدَمُ وَلَنْ يَرَوْا مِثْلَهُ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ
كما تصف أخاها عمراً في ساحة القتال التي يصل فيها الفرسان المدجون
بالسلاح فيواجههم بشجاعة وقوة دون خوف، فتقول⁽³⁾:

فَمَا بَلَغَتْ مِدْحَتِي لِأَمْرِي يَزُمُ الْكُمَاةَ وَيُعْطِي النَّوَالَا
وَيَنْزِلُ فِي غَمَرَاتِ الْحُرُوبِ إِذَا كَرِهَ الْمُحْجَمُونَ النَّزَالَا
وقالت عمرة أخت عمرو ذي الكلب الهذلي واصفة قوة طعنة أخيها للأعداء
أثناء القتال، فتسيل الدماء فتتبعه النسور وهي موقنة بأنها ستجد طعامها المنشود⁽⁴⁾:

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتْبَعُهَا مُتَعَجِّرُنْ مِدَمِ الْأَجَوَافِ مَسْكُوبُ
تَمْشِي النَّسُورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ شَمِي الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيْبُ

(1) ميدان، أيمن محمد، (1995)، شعر تغلب في الجاهلية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة،
مصر، ص212.

(2) الهذليين، (1965)، ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر،
ص121.

(3) مارديني، رغداء، (2002) شواعر الجاهلية، ط 1، دراسة نقدية، دار الفكر المعاصر،
بيروت، لبنان، ص236.

(4) البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت: 284هـ)، (1967)، الحماسة، دار الكتاب العربي،
بيروت، لبنان، ص275.

وقالت أمية بن ضرار ترثي أخاها قبيصة بن ضرار واصفة قوة طعنته للعدو
في القتال (1):

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ عَنْ عُرْضٍ كَأَنَّهَا قَبَسٌ بِاللَّيْلِ مَسْعُورٌ
وتصف ربيعة بنت العباس السلمي أخاها الفارس الذي قتله بنو خثعم، وقد
كان فارساً يورد الخيل ويرسلها زهواً موكل مقاتل بعد ده يرى قلقاً لأن أخاها كان
ركن الحي في كل أزمة وعصمتهم، فتقول (2):

لَعْمِي وَمَا عُمَرِي لَمَيَّ بِهِيْن لَنَعْمَ الْفَتَى أُرْدِيَتْ أَلْ خَثْعَمَا
فَأَمْسَى الْحَوَامِي قَدْ تَقْفَيْنَ بَعْدَهُ وَكَانَ الْحَصَى يَكْسُو دَوَابِرَهَا دَمَا
وَيَنْهَضُ لِلْعُلْيَا إِذَا الْحَرْبُ شَمَرَتْ فَيُطْفِئُهَا قَهْراً وَإِنْ شَاءَ أَضْرَمَا
وقالت ربيعة أخت تأبط شراً تصف أخاها بأنه فارس الميدان يقتل أقرانه
ويحمي ظهور إخوانه في القتال (3):

يُجَدِّلُ الْقِرْنَ وَيَرْوِي النَّدْمَانَ ذُو مَاقِطٍ يَحْمِي وَرَاءَ الْإِخْوَانِ
وتشير سعدى بنت الشمردل إلى شجاعة أخيها أسعد ومهارته في القتال،
وحنكته وبراعته في قيادة الجيش، وذلك في قولها (4):

سَبَّاقُ عَادِيَةٍ وَرَأْسُ سَرِيَّةٍ وَمَقَاتِلُ بَطْلٍ وَدَاعٍ مُسْمَعٍ
وقال قيس بن عيزارة يرثي أخاه الحارث بن خويلد مبرزاً قوته وجلده في
القتال (5):

وَأَبِيكَ إِنْ الْحَارِثَ بْنَ خُوَيْلِدٍ لِأَخُو مُدَافَعَةٍ لَهُ مَجْلُودُ
ومهما يمكن من أمر، فقد برزت صورة الأخ في قصائد الرثاء الجاهلي
مقاتلاً مجيداً لفنون القتال والقيادة بما تستلزم من شجاعة وجلد.

(1) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص 301.

(2) المرجع نفسه، ص 191.

(3) (3) يارديني، شواعر الجاهلية، ص 255، القرن: النظر في الشجاعة والحرب، والأقط مكان
الحرب، أرادت أنه فارس ميدان.

(4) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص 126.

(5) الهذليين، الديوان، ص 73.

وتصف رائطة بنت شيزم براعة القتال والفتك بالعدو عند أخويها، فتقول⁽¹⁾:

الضَّارِبِينَ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ بِالْبَيْضِ الصَّوَارِمِ
وَالطَّاعِنِينَ بِكُلِّ مَا رَنَ وَقَاصِمَةٍ وَقَاصِمِ
حَدَقَ الْفَوَارِسِ بِالْأَسِنَّةِ وَالْقُلُوبِ لَدَى الْغَلَاصِمِ

فترى أخويها في ميدان القتال وهما يضربان رؤوس الأبطال بالسيوف
ويطعنان بالرماح فيصيبان قلوب الخصوم.

وتصف أم الصريح الكندي إختوها بالثبات في ميدان المعركة والإقدام على
مقارعة الأبطال والصبر على الموت، دون أن تستخدم ألفاظاً تدل دلالة مباشرة على
ما قصدت من معان، تقول⁽²⁾:

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوْا، وَالْقَنَا فِي نُحُورِهِمْ فَمَا تَوَا وَأَطْرَافُ الْقَنَا تَقْطِرُ الدَّمَ
وتصف مية بنت ضرار الضبية أخاها على صهوة جواده في شجاعة، فتقول:
تَرَاهُ عَلَى الْخَيْلِ ذَا قُدْمَةٍ إِذَا سَرَبِلَ الدَّمُ أَكْفَالَهَا
وَحَلَّتْ وَغُولاً أَشَارَى بِهَا وَقَدْ أَزْهَقَ الطَّعْنُ أَبْطَالَهَا
وَلَمْ تَمْنَعْ الْحَيَّ رَثُ الْقَوَى وَلَمْ تُخَفِ حَسَنَاءُ خُلْجَالَهَا

تقدم لنا الرائية وصفاً دقيقاً لحركة أخيها داخل ميدان المعركة، فتقدمه لنا
فارساً يقدّم قوممكراً على عدوه إذا قم ص الدم أكفال الخيل، وهجم الطعن على
الأبطال، وعزت المنعة وأخرج الخوف الحسناء من خبائها، فطلبت ملجأ تلجأ إليه
لتصون عرضها⁽³⁾.

وتصف أم عمرو بن مكرم أخاها ربيعة بن مكرم بالفروسية وشجاعة القتال
في الحروب المهلكة وتفاضل به الآخرين من القتلى بأنه خير منهم، فتقول⁽⁴⁾:

هُوَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ مَالِكٍ إِذَا احْمَرَّتْ طَرَفُ الرِّمَاحِ مِنَ الدَّمِ

(1) ابن منقذ، المنازل والديار، ص449، الغلاصم: الغلصمة: رأس الحلقوم والجمع: الغلاصم.

(2) الصباري، خميس بن ماجد بن خميس، (2006)، فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، رسالة
ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص53.

(3) المرجع نفسه، ص59، 60، أشاري: جمع أشران من الأشتر، وهو البطر.

(4) المرجع نفسه، ص61، وانظر: الأصفهاني، الأغاني: 40/16.

وَشَبَّتْ حُرُوبٌ بَيْنَكُمْ مَ وَتَقَصَّفَتْ
عَوَالِي يَدِي شَجْعَةً غَيْرَ لُومٍ

وتصف عمرة بنت شداد أخاها بقوة الطعن في ميدان القتال قائلة:

قَدْ يَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتَّبَعُهَا
مَضْرَجٌ بَعْدَهَا تَغْلِي بِإِزْبَادٍ
وَيَتْرَكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ
كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَادٍ

فهو يطعن الطعنة المميته التي يصيب بها مقتلاً من عدوه، يغلي على إثرها دمه غلي الرجل على النار، فيموت مصفراً أنامله ملونة ثيابه بالدم، ولم يكن عدوه ضعيفاً، بل كان مكافئاً له في الشجاعة، لأن إظهار قوة الخصم، هي إظهار لقوة الممدوح (1).

وتشير سعدى بنت الشمردل إلى استبسال أخيها في القتال، فتقول (2):

جَادَ ابْنُ مَجْدَعَةَ الْكَمِي بِنَفْسِهِ
وَلَقَدْ يَرَى أَنَّ الْمَكْرَ لَأَشْنَعُ
وَيَلُمُّ هِرْجُلًا يَلِيذُ بِظَهْرِهِ
إِبْلًا وَنَسَالُ الْفِيَا فِي أَرْوَغٍ

ويصف المتنخل أخاه عويمراً بالقوة في مقاتلة أقرانه، فيقول (3):

لَعَمْرُكَ مَا إِنَّ أَبُو مَالِكٍ
بِوَانٍ وَلَا بِضَعِيفٍ قُؤَاهُ
وَلَا بِالْأَدِّ لَهُ نَازِعٌ
يُغَارِي أَخَاهُ إِذَا مَا نَهَاهُ

وتصف أسماء أخت كليب وائل أخاها في وقت اشتداد الحرب وصياح الفرسان كيف يكون كالجبل قوياً شامخاً يهاجم أقرانه بلا خوف وسط الغبار المثار، فتقول (4):

طَوْدَ عِزٍّ وَهَمَاماً فِي الْوَعْيِ
يَمْنَعُ الْأَقْرَانَ وَسَطَ الْقَسْطَلِ

(1) الصباري، فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، ص 70.

(2) المرجع نفسه، ص 77، 78.

(3) ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم (ت: 276هـ)، (د.ت)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرحه محمد شاکر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 660، انظر: الهذليين، الديوان، ص 79.

(4) ميدان، شعر تغلب في الجاهلية: ص 212.

وفي موضع آخر تصفأفه بطل في القتال مثل الأسد ممتطياً جواده الأشقر
السريع المراوغ مثل الثعلب ، فتفر الخيل من روع المعركة وشدتها ويثبت الأشقر
مع فارسه البطل، تقول في ذلك⁽¹⁾:

بَطْلٌ ضِرْغَامَةٌ حِينَ بَدَا تَحْتَهُ الْأَشْقَرُ مِثْلَ التَّنْفُلِ
مَنْ تَفَرُّ الْخَيْلُ فِي الرَّوْعِ لَهُ بَطْلٌ مِثْلُ هَزْبِرٍ مَشْبُلِ

مما سبق نجد أن صورة الأخ المحارب هو البطل الذي يقتحم المخاطر ولا
يهاب الأعداء، يهجم على العدو ضارباً بالسيف طاعناً بالرمح، يزود عن القبيلة
حامياً لظهور إخوانه في المعركة . ولا شك في أن الصلة وثيقة بين السيادة
والفروسية، فمن شروط السيادة أن يكون السيد قادراً على خوض المعارك وقيادة
القبيلة لتحقيق النصر على العدو.

(1) ميدان، شعر تغلب في الجاهلية، ص212.

الفصل الثالث

رثاء الأخ

الرثاء فن شعري يعبر عن خلجات النفس الإنسانية، ويتجه إلى القلوب قبل العقول؛ لأنه انفعال وجداني وإنساني بلحظة الفقد، ويمكن توضيح مفهوم الرثاء دون التعمق في مدلولات اللفظ اللغوية كما يلي:

"قيلوثى فلان فلاناً يرثيه رثيا ومرثية : إذا بكاه بعد موته، ورثيت الميت رثياً ورثاء ومرثاة ومرثية : مدحت بعد الموت وبكيت، وعددت محاسنه ونظمت فيه شعراً.

وقيل رثاه (بتشديد الثاء) مخصوص بالمدح بعد الموت، ومن دون تشديد مخصوص بالبكاء، وقيل امرأة رثاءة ورثاية، أي كثيرة البكاء والرثاء... والمفهوم العام للرثاء: هو صناعة الشعر في المرثي بكاءً وندباً وعزاءً⁽¹⁾.

وعند مطالعة قصائد الرثاء في الجاهلية نجد أن أقوى القصائد كانت في رثاء الأخ، وكانت تفيض بالحزن والألم والحسرة والدموع دون توقف؛ لأن رابطة الإخوة قوية، حيث ينشأ الإخوة منذ الطفولة تربطهم عاطفة الحب والمودة، ويكون الأخ سنداً وعوناً لأخيه في الشدائد والملمات حيث يترك عند الأخ أثراً كبيراً في النفس، وألماً لا يمكن احتماله فيولع الأخ أو الأخت بالبكاء والصراخ والأنين والندب.

1.3 البكاء والندب:

لم يقتصر البكاهى النساء في رثاء الأخ بل شمل الرجال أيضاً، وإن كانت المرأة أكثر حزناً وانفعالاً في التعبير عن الحزن والألم والحسرة فإن الرجل أيضاً لم يستطع إخفاء ألمه الشديد على فقد أخيه.

(1) جمعة، حسين، (1991) الرثاء في الجاهلية والإسلام، ط 1، دار العلم، دمشق، سور يا: 488/2، واللسان (رثى).

ويعد بكاء المهلهل بن ربيعة على أخيه كليب من أقدم البكاء في الشعر
الجاهلي، فقد بكاه ليلاً ونهاراً ومن ذلك قوله⁽¹⁾:

أَهَاجُ قَذَاءَ عَيْيِ الْأَذْكَارُ	هَدُوءًا فَالْدُمُوعُ لَهَا أَنْحِدَارُ
وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا	كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ نَهَارُ
وَبَتُّ أَرَقِبُ الْجَوَزَاءَ حَتَّى	تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا أَنْحِدَارُ
أَصْرَفُ مُقْلَتِي فِي إِثْرِ قَوْمٍ	تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ هِهِمْ فَغَارُوا
وَأَبْكِي وَالنُّجُومُ مُطْلَعَاتُ	كَأَنَّ لَمْ تَحْوِهَا عَنِّي الْبَحَارُ

إن ذكرى مقتل أخيه لا تفارقه وتهيج في قلبه الآلام والأوجاع فتتحدّر دموعه
كالسيل، ولا تكف دموعه طوال الليل كأن الليل ليس نهاراً.

ويستبد به الحزن والألم الشديد فيرفع صوته منادياً أخاه كليباً فلا يجيبه
ويحاول مرة ومرة والحزن يعتصر قلبه، فيقول⁽²⁾:

دَعَوْكَ يَا كُؤْلِبُ فَلَمْ تُجِبْنِي	وَكَيْفَ يُجِيبُنِي الْبَلَدُ الْقِفَارُ
أَجِبْنِي يَا كُؤْلِبُ خَلَكَ ذَمُّ	ضَنْبِنَاتُ النَّفُوسِ لَهَا مَزَارُ
أَجِبْنِي يَا كُؤْلِبُ خَلَكَ ذَمُّ	لَقَدْ فُجِعْتُ فَارِسَهَا نِزَارُ

وما تزال عينا للمهلهل تذرفان الدمع بلا انقطاع على أخيه كليب ، وكأن
رموش العين من الشوك الذي يؤلم العين فتذرف الدموع بشدة، وفي ذلك يقول⁽³⁾:

أَبْتُ عَيْنَايَ بَعْدَكَ أَنْ تَكْفَأَ	كَأَنَّ غَضًا الْقَتَادِلَهَا شِفَارُ
---	---------------------------------------

ومما يهيج العين بالبكاء أن كليباً يغطيه التراب ، والرياح تأتي محملة به فتزيد
من كم التراب الذي يغطيه فيقول⁽⁴⁾:

وَلَعَيْنٍ تَبَادَرِ الدَّمْعُ مِنْهَا	لِكُؤْلِبٍ إِذْ فَاقَهَا بِأَنْهَمَالِ
لِكُؤْلِبٍ إِذْ الرِّيحُ عَلَيْهِ	نَاسِفَاتُ التُّرَابِ بِالْأَذْيَالِ

(1) المهلهل، الديوان، ص28.

(2) المصدر نفسه، ص29.

(3) المصدر نفسه، ص29.

(4) المصدر نفسه، ص71.

ويشتد الحزن والألم بالمهلhel فيتمنى أن تزول الحياة عن كل ما في الأرض،
وتتطبق السماء على الأرض، ويجعل منازل السلان تبكي كلياً، فيقول⁽¹⁾:

نَعَى النَّعَاةُ كُلِّيًّا لِي فَقُلْتُ لَهُمْ مَادَتْ بِنَا الْأَرْضُ أَمْ مَادَتْ رَوَاسِيهَا
لَيْتَ السَّمَاءُ لَيَّ مِنْ تَحْتِهَا وَقَعَتْ وَحَالَتْ الْأَرْضُ فَانْجَابَتْ بِمَنْ فِيهَا
أَضْحَتْ مَنَازِلُ بِالْسلَانِ قَدْ دَرَسَتْ تَبْكِي كُلِّيًّا وَلَمْ تَقْزَعِ أَقَاصِيهَا

أما الخنساء فقد بلغ رثاؤها مبلغاً كبيراً لا يعدلها فيه أي رجل في اللوعة
والحزن والأسى والبكاء ، وتكثر من مخاطبة عينيها طالبة منهما عدم الكف عن الدموع
حزناً على فقد أخيها صخر فتقول⁽²⁾:

أَلَا يَا عَيْنُ فَانْهَمِرِي بِغَزَرٍ وَفِيضِي عِبْرَةً مِنْ غَيْرِ نَزَرٍ
وَلَا تَعْدِي عَزَاءً بَعْدَ صَخَرٍ فَقَدْ غَلَبَ الْعَزَاءُ وَعِيلَ صَبْرِي

وتسهر الخنساء ليلاً، حيث لا يأتيها النوم تبكي أخاها صخرأ بدمع غزير وتحت
عينيها على ذرف الدموع فتقول⁽³⁾:

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ مِغْزَارٍ وَابْكِي لِصَخَرٍ بِدَمْعٍ مِنْكِ مَذْرَارٍ
إِنِّي أَرَقْتُ فَبِتُ اللَّيْلَ سَاهِرَةً كَأَنَّمَا كُحِلَتْ عَيْنِي بِعُؤَارٍ
أَرعى النُّجُومَ وَمَا كُفَلْتُ رَعِيَتَهَا وَتَارَةً أَتَغْشَى فَضْلَ أَطْمَارِي

وهي تحاول أن يأتيها النوم فلا يأتيها وتتغشى بفضل أطمارها لأنها لا تلبس
جديداً حزناً على قتل صخر أخيها.

وتبدأ في قصيدة أخرى بالبكاء بدموع تنسكب كالطر فتقول⁽⁴⁾:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ مُهْرَاقُ سَحَاً فَلَا عَازِبٍ مِنْهَا وَلَا رَاقٍ
تَبْكِي عَلَى هَالِكٍ وَلَّى فَأُورِثِي عِنْدَ التَّفَرُّقِ حُزْنًا حَرُّهُ بَاقٍ
لَوْ كَانَ يَشْفِي سَقِيمًا وَجَدُ ذِي رَحِمٍ أَبْقَى أَخِي سَالِمًا حُزْنِي وَإِشْفَاقِي

(1) المهلهل، الديوان، ص91.

(2) الخنساء، الديوان، ص177.

(3) المصدر نفسه، ص290، أتغشى: أتغشى، ومنه (واستغشوا ثيابهم).

(4) المصدر نفسه، ص304.

وتصر على البكاء كلما ناحت مطوقة على غصن شجرة، وطالما مشيت ليلاً
على رجلها فتبكي أباها بعين أصابها الحزن والأسى لا يجف مجراها، فتقول (1):

لَأَبْكِيَنَّكَ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ وَمَا سَرَيْتُ مَعَ السَّارِي عَلَى سَاقٍ
تَبْكِي لِفُرْقَتِهِ عَيْنٌ مُفَجَّعَةٌ مَا إِنْ يَجْفُلُهَا مِنْ ذِكْرِهِ مَا أَقِي
وفي قصيدة أخرى تحت عينيها على الجود بالبكاء وتلح عليهما، فتقول (2):

يَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ الِهُمُومِ وَأَبْكَ لِي صَخْرٍ بِالدُّمُوعِ الِهُجُومِ
لَا تَخْذِلْنِي حِينَ جَدَّ الْبُكَاءِ فَلَيْسَ ذَا لِي عَيْنٍ حِينَ الْخُذُولِ
وَأَبْكَ أَبَا حَسَّانَ وَاسْتَعْبِرِي عَلَى الْجَرِيءِ الْمُسْتَخَافِ الْمُخِيلِ

وفي قصيدة أخرى تبدأ فيها بحث عينيها على البكاء ليلاً في وقت يهدأ فيه
الناس، ويهمون بالنوم فتسمع صوت هديل الحمام على الغصون فتجدد عليها الآلام
والأحزان، وكلما سمعت معولة تبكي لأحد مجروح، فتقول (3):

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكَ مُهْرَاقٍ إِذَا هَذَا النَّاسُ أَوْ هَمُّوا بِإِطْرَاقٍ
إِنِّي تُذَكِّرُنِي صَخْرًا لِيَا سَجَعْتُ عَلَى الْغُصُونِ هَتُوفَ ذَاتِ أَطْوَاقٍ
وَكُلُّ عَبْرَى تَبَيَّتُ اللَّيْلَ مُعَوْلَةً تَبْكِي لِكُلِّ جَرِيحِ الْقَلْبِ مُشْتَاقٍ

وتفيض عينا الخنساء بالبكاء في قصيدة أخرى لتجدد الذكرى التي تبقى أبداً
منبع الحزن والدموع، فتقول (4):

مَا هَاجَ حُزْنُكَ أَمْ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أَمْ ذَرَفَتْ إِذْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ فَيَضُ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذْرَارُ

وتبكي العين بحرقة وهي ترى التراب يغطي جسد صخر فتعاهد الخنساء
نفسها أن تبكيه أبد الدهر، فتقول (5):

(1) الخنساء، الديوان، ص305.

(2) المصدر نفسه، ص306-307، الهجول: التي تصب صباً كثيراً.

(3) المصدر نفسه، ص344-345.

(4) المصدر نفسه، ص378.

(5) المصدر نفسه، ص379.

تَبْكِي لِصَخْرٍ هِيَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَلِهَتْ وَكُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أَسْتَارُ
تَبْكِي خُنَّاسُ فَمَا تَنْفَكُ مَا عَمَرْتَ لَهَا لَيْعُهُ رَنِينٌ وَهِيَ مِفْتَارُ
تَبْكِي خُنَّاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ
ولا شك أن الحزن يؤرق ويمنع النوم ، فهذا معد يكرب يرثي أخاه المقتول
شرحبيل فيقول:

إِنَّ جَنْبِي عَنِ الْفِرَاشِ لَنَابٍ كَتَجَافِي الْأَسْرِ فَوْقَ الظَّرَابِ
مِنْ حَدِيثٍ نَمَّ إِلَيَّ فَمَا تَرُ قَا عَيْنِي وَلَا أُسِيغُ شَرَابِي
مُرَّةً كَالزُّعَافِ أَكْتُمُهَا النَّاسُ سَ عَلَى حَدٍّ مَلَّةً كَالشَّهَابِ

فمعد يكرب جفاه الفراش، كأن به داء يمنعه النوم، وعينه لا تجف دموعها
ونفسه تعاف الشراب، وعلى الرغم من ذلك فهو يكتُم أحزانه عن الناس كأنه يتقلب
على جمر ملتهب⁽¹⁾.

ومتمم بن نويرة يحدثنا عن أرقه وشدة حزنه حين يذكر أخاه مالكا ، ودموعه
لا ينضب معينها، وكأنها ماء الدلو ذي الثقوب الواهي، وأنه حيث يذكر أخاه حين
تطلع توالي النجوم آخر الليل، وأن نوح الحمام يهيج له الذكرى ، يبدو هذا المشهد
في قوله⁽²⁾:

أَرَقْتُ وَنَامَ الْأَخْلَاءُ وَهَاجَنِي مَعَ اللَّيْلِ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ وَجِيعُ
وَهَجَّ لِي دُ زَنَا تَذَكُّرُ مَالِكٍ فَمَا نِمْتُ إِلَّا وَالْفُؤَادُ مَرْوَعُ
إِذَا عَبْرَةٌ وَدَعَتْهَا بَعْدَ عَبْرَةٍ أَبَتْ وَاسْتَهَلَّتْ عَبْرَةٌ وَدُمُوعُ
كَمَا فَاضَ غَرْبٌ بَيْنَ أَقْرُنِ قَامَةٍ يُرَوِّي دِبَاراً مَأْوُهُ وَزُرُوعُ
جَدِيدُ الْكَلَى وَاهِي الْأَدِيمِ تُبِينُهُ عَنِ الْعَبْرِ زَوْرَاءُ الْمَقَامِ نَزُوعُ
لِذِكْرِي حَبِيبٍ بَعْدَ هَذِهِ ذِكْرَتُهُ وَقَدْ حَانَ مِنِّي تَالِي النُّجُومِ طُلُوعُ

(1) ابن معد يكرب، عمرو (ت: 21هـ)، (1974) الديوان، تحقيق : مطاع الطرابيشي، مجمع
اللغة العربية، دمشق، سوريا، ص49.

(2)الضبي، المفضليات، ص 271، 272؛ المروع:الفرع؛ العبرة :الدمعة؛ الغرب : الدلو
العظيمة؛ القامة: بكرة البئر؛ نزوع: ركية قريبة القعر.

إِذَا رَقَاتِ عَيْنَايَ ذَكَّرَنِي بِهِ حَمَامٌ تَتَلَخَّى فِي الْغُ صُونٍ وَقُوعُ
دَعَوْنِ هَدِيلاً فَاحْتَزَنْتُ لِمَالِكٍ وَفِي الصَّدْرِ مِنْ وَدِّ عَلَيْهِ صُدُوعُ
ويبكي متمم كل قبر يراه لأنه يذكره بقبر أخيه ، فتشخص كالأوابد من تحت
التراب، فكل قبر يقوم مقام الآخر وليس له في قبر أخيه إلا مثل ما له في القبور
جميعاً، ولعل هذا ما زاد من غلواء حزنه، حيث يقول (1):

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لَتَذَرَفِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ
فَقَالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ قَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالِدَوَانِكِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا فَصَنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ
ويتألم ليبد بن ربيع فقد أخيه أربد ويرى أن مصيبتَه تفوق المصائب،
فيقول (2):

إِنَّ الرِّزِيَّةَ لَا رِزِيَّةَ مِثْلَهَا فِقْدَانُ كُلِّ أَخٍ كِضْوَاءُ الْكَوْكَبِ
ومما يهيج البكاء عند لبيد اجتماع الناس في مجلس للضيافة وإطعام البائسين،
في ليلة شتاء مقمرة تميزت بشدة البرد، فيتذكر أخاه أربد الكريم فيقول (3):
أَبْكِي أَبَا الْحَزَازِ يَوْمَ مَقَامَةِ لِمُنَاحٍ أَضْيَافٍ وَمَأْوَى مُقْتَرِ
وَالْحَيِّ إِذْ بَكَرَ الشِّتَاءُ عَلَيْهِمْ وَعَدْتُ شَامِيَةً بِيَوْمٍ مُقْمَرِ
وقال ساعدة بن العجلان يذكر أخاه مسعوداً حين قتله ضمرة بن بكر (4):
لَمَّا رَأَيْتُ عَدَى ضَمْرَةَ فِيهِمْ وَذَكَرْتُ مَسْعُوداً تَبَادَرَا أَدْمُعِي
وقال قيس بن عيزارة أخو بني صاهلة يرثي أخاه الحارث بن خويلد (5):
يَا حَارِ لِنِي يَا ابْنَ أُمِّ عَمِيدُ كَمَدٌ لَكُنِي فِي الْفُؤَادِ لَهِيدُ

(الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس ، (1968) ديوان الحماسة، ط 2 شرحه ونشره : أحمد أمين
وعبد السلام هارون، القسم للاني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر : 797/2،
الشجا: الوجد والحزن.

(2) العامري، الديوان، ص157.

(3) المصدر نفسه، ص166.

(4) الهذليين، الديوان، ص105.

(5) المصدر نفسه، ص72.

وَاللهُ يَشْفِي ذَاتَ نَفْسِي حَاجِمٌ أبدأ ولا مِ ما إخال لَدُودُ

فيجعل قيس الألم الذي أصاب قلبه جسيماً فلا يشفيه المداوي.

ولتجد اللوعة في أم عمرة بنت مك دم عندمثرثي أخاها ربيعة بن مك دم بأن
دمعها مدرار لا يرقأ، وحزنها شديد لا يهدأ، ولو أن حب الأخت لأخيها ووجدتها
عليه يرجعانه أو يحفظانه لحق لها أن تطلب رجعة أخيها أو خلوده، ولو أن الفداء
يقي إنساناً الموت لفدته بأهلها جميعاً وبمالها⁽¹⁾.

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمْعُ مُهْرَاقُ	سَحّاً وَلَا عَازِبٌ لَا وَلَا رَاقِ
أَبْكِي عَلَى هَالِكٍ أودى وَأُورَثِي	بَعْدَ التَّفَرُّقِ حُزْناً بَعْدَهُ بَاقِ
لَوْ كَانَ يَرْجِعُ مَيِّتاً وَجَدُ مُشْفَقَةً	أَبْقَى أَخِي سَالِماً وَجَدِي وَإِشْفَاقِي
أَوْ كَانَ يُفْدِي لَكَانَ الْأَهْلُ كُلُّهُمْ	وَمَا تُثْمِرُ مِنْ مَالٍ لَهُ وَاقِ
فَسَوْفَ أَبْكِيكَ مَا ذَا حَتِّ مُطَوَّقَةٍ	وَمَا سَرِيتُ مَعَ السَّارِي عَلَى سَاقِ
أَبْكِي لِذِكْرَتِهِ عَيْنٌ مُفْجَعَةٌ	مَا إِنْ يَجْفُلُهَا مِنْ ذِكْرِهِ مَاقِ

وتبكي سعدى بنت شمر دل الجهنية أخاها أسعد بن الشمر دل الذي غدرت به
قبيلة "بهز" فتقول⁽²⁾:

أَمِنَ الْحَوَادِثُ وَالْمُنُونِ أَرْوَعُ	وَأَبَيْتُ لَيْلِي كُلَّهُ لَا أَهْجَعُ
وَأَبَيْتُ مُجْلِيَةً أَبْكِي أَسْعَدَا	وَلَمِثْلِهِ تَبْكِي الْعُيُونُ وَتَهْمَعُ
وَتُبَيِّنُ الْعَيْنُ الطَّلِيحَةَ أَنَّهَا	بَغْيٌ مِنَ الْجَزَعِ الدَّخِيلِ وَتَدْمَعُ

فهي تبين الليل كله باكية على أخيها لا تستطيع النوم حزناً وألماً على فقده.

وتبكي الفارعة بنت شداد على فقد أخيها فتقول⁽³⁾:

يَا عَيْنُ بَكِيٍّ لَمْ سَعُودَ بْنِ شَدَادِ	بُكَاءَ ذِي عِبْرَاتٍ شَجْوَهُ بَادِ
--	--------------------------------------

(1) مارديني، شواعر الجاهلية، ص221.

(2) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص124.

(3) المرجع نفسه، ص146.

وهي تستحث عيها بالبكاء الغزير الذي لا ينقطع ، وتبكي صفة الباهلية
أخاها والحزن يعتصر قلبها عندما تتذكر الحياة السعيدة التي جمعت بينهما في
الطفولة والصبا، فجاء الموت ليهدم هذه الحياة جالبا الحزن والأسى، فتقول⁽¹⁾:

عشنا جميعاً كغصني بآنسة سَـمَـقا حيناً على خيرٍ ما تُنمى له الشجرُ
حتى إذا قيلَ قَدْ طَـالَتْ فُرُوعُهُمَا وطابَ قُتُوهما واستَضر الثمرُ
أُخنى على واحدٍ ريبُ الزمان وما يُبقي الزمانُ على شيءٍ ولا يذرُ
وأما أخت حاجر الأزدي فيذهب بها الحزن على فقد أخيها مذهباً يجعلها
مترددة متشككة، لا تقوى على تحديد مصيره، أحي هو أم ميت، تقول⁽²⁾:

أحيٍ لحَـزْزِ أم لَـيْسَ حَـيَا فيسلكَ بينَ جَـنَدَفٍ وَالبَهِيمِ
ويشربُ شَـرْبَةً مِنْ مَـاءٍ تَـرَجٍ فيصدرُ مِشْيَةَ السَّبْعِ الكَلِيمِ
وقد يصل الحزن على فقد الأخ بأن يدفع الأخ الراثي إلى أن يدعو على
الناس كافة بألا يهنئهم الله ما يرعونه من الحمى، وما يحوزونه من مال ويسوقون
من أهل وولد، وفي ذلك يقول النابغة يرثي أخاً له من أمه⁽³⁾:

لَا يَهْنِئُ النَّاسَ مَا يَرْعُونَ مِنْ كَلَأٍ وَمَا يَسُوقُونَ مِنْ أَهْلِ وَمِنْ مَالٍ
بَعْدَ ابْنِ عَاتِكَةَ اللَّوِيِّ عَلَى أَبَوِي أَمْسَى بَبْلَدَةٍ لَا عَمٍّ وَلَا خَالٍ

الندب:

وقد لا يكتفي المصاب بالحزن على فقد الأخ بالبكاء بل يتعدى البكاء إلى
الندب، واللطم، وشق الجيوب، ووضع التراب فوق الرأس، وخمش الوجوه.
والندب -لغتمن ندب يندب ندباً وندبت الميت : بكيت عليه ونحت وعددت
محاسنه.

(1) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص195، استتضر: أي قرب وقت حصاده.

(2) الصباري، فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، ص56.

(3) النابغة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية، (1984) الديوان، تحقيق : عباس عبد الستار،
دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 103. وانظر: الطائي، ديوان الحماسة، ص901.

والندب -اصطلاحاً- بكاء الميت والنوح عليه بعبارات مفاجئة وحزينة في ضرب من تعداد مناقبه والثناء عليه.

فسييل الندب، التفجع، والتوجع، والنوح، والصراخ، وإظهار الجزع، وله عدد من الأساليب اللفظية والبلاغية أشهرها (وافلانا) أو (يا فلانا).
ويصف المهلهل بن ربيعة بكاء النساء وندبهن أخاه كليلاً فيلطن وجوههن ويخدشنها، فيقول⁽¹⁾:

كُنَّا نَغَارُ عَلَى الْعَوَاتِقِ أَنْ تُرَى	بِالْأَمْسِ خَارِجَةً عَنِ الْوُطَانِ
فَخَرَجْنَ حِينَ ثَوَى كُلُّنَّ حُسْرًا	مُسْتَيْقِنَاتٍ بَعْدَهُ بِهَوَانِ
فَتَرَى الْكَوَاعِبَ كَالظُّبَاءِ عَوَاطِلًا	إِذْ حَانَ مَصْرَعُهُ مِنَ الْأَكْفَانِ
يَخْمِشْنَ مِنْ أَدَمِ الْوُجُوهِ حَوَاسِرًا	مِنْ بَعْدِهِ وَيَعِدْنَ بِالْأَرْمَانِ
مُتَسَلِّبَاتٍ نُكْدَهُنَّ وَقَدْ وَرَى	أَجْوَاهُنَّ بِحُرْقَةٍ وَرَوَانِي

ثم يستحث المهلهل النساء على الندب والبكاء، فيقول⁽²⁾:

فَابْكَيْنِ سَيِّدَ قَوْمِهِ وَانْدُبْنَهُ
شُدَّتْ عَلَيْهِ قَبَاطِي الْأَكْفَانِ

وتظهر معاني الندب في رثاء بشر بن أبي خازم لأخيه سمير في قوله⁽³⁾:

أَمْسَى سَمِيرٌ قَدْ بَانَ فَانْقَطَعََا	يَا لَهْفَ نَفْسِي لِبَيْنِهِ جَزَعَا
قَوْمًا فَنُوحَا فِي مَاتَمٍ صَحَل	عَلَى سَمِيرِ النَّدَى وَلَا تَدَعَا
ثُمَّ انْدُبَاهُ لِكُلِّ مَكْرَمَةٍ	لَا مَسْنَدًا عَاجِزًا وَلَا وَرَعَا

إن بشتلَهف نفسه جزعاً وحزناً على فقد أخيه سمير فيستبكي رفيقاً به ويدعوهما إلى النواح على أخيه طالباً منهما نديه.

(1) المهلهل، الديوان، ص 86-87، متسلبات: شققن جيوبهن وأرسلن شعورهن من شدة الحزن، رواني: ناظرات بعيون ذابلة.

(2) المصدر نفسه، ص 88.

(3) ابن أبي خازم، الديوان، ص 93.

وتصرخ ناجية أخت هرم بن ضمضم المري متفجعة لعدم رؤياها أخاها هرمًا
على فرسه مودوع مرة أخرى، فتقول⁽¹⁾:

يَا لَهْفَ نَفْسِي لَهْفَةَ الْمَفْجُوعِ أَلَا أَرَى هَرَمًا عَلَى مَوْدُوعِ

ومما سبق من الشواهد الشعرية يدل على مقدار الحزن والأسى والألم الذي
يُلْمُ لِأَخٍ أَوْ الْأَخْتِ لِفَقْدِ الْأَخِ بصورة تدفع إلى البكاء الشديد والندب ؛ لأن فقدان الأخ
لا يعوض، وعندما يصاب البيت أو الأسرة بفقد واحد من أبنائه، يهب الأخ أو
الأخت بندب الفقد بألم وحسرة وبألفاظ تشتمل على معاني الحزن والألم والحسرة
والتفجع.

2.3 أثر موت الأخ في نفس أخيه:

يُعْلَمُ مَوْتَ الْأَخِ مِنَ الصَّائِبِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي يَصْعَبُ احْتِمَالُهَا، فَفَدَّ الْأَخُ يَتْرَكُ
أَثْرًا بِالْغَا فِي النَّفْسِ، وَقَدْ يَظْهَرُ الْأَثَرُ فِي الْجَسَدِ عِلَامَةً بَارِزَةً لَا يَمْحُوهَا الزَّمَنُ.
وَالْحُزْنَ لِفَقْدِ الْأَخِ يَمْنَعُ النَّوْمَ الَّذِي يَحْتَاجُهُ الْجِسْمُ، كَمَا أَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ لَا
يَصْبَحُ لِهَمَا طَعْمٌ وَلَا لَذَّةٌ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مَعَدُ يَكْرِبُ عِنْدَمَا سَمِعَ بِقَتْلِ شَرْحَبِيلَ أَخِي،
فَقَالَ⁽²⁾:

إِنْ جَنَّبِي عَنِ الْفِ رَاشٍ لِنَابِ كَتَجَافِي الْأَسْرِ فَوْقَ الظُّرَابِ
مِنْ حَدِيثٍ نَمَّا إِلَيَّ هَا تَر قَأُيْفِي وَلَا أُسَيِّغُ شَرَابِي

وقال أعشى باهلة يرثي أخاه المنتشر مصوراً حاله إثر سماع خبر موت
أخيه⁽³⁾:

قَدْ جَاءَ مِنْ عَلٍ أَنْبَاءُ أَنْبَوُهَا إِلَيَّ لَا عَجَبُ مِنْهَا وَلَا سَا خَرُ
فَظَلَلْتُ مُرْتَفِقًا لِلنَّجْمِ أَرْقُبُهُ حَرَّانَ مُكْتَتِبًا لَوْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ

(1) مارديني، رغداء، شواعر الجاهلية، ص303.

(2) ابن معد يكرب، الديوان، ص49، ترقأ: تهدأ وتكف عن البكاء.

(3) الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت: 216هـ)، (د.ت) الأصمعيات، تحقيق :
عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص73.

إن خبر موت المنتشر جعل الأعشى من حزنه الشديد وكآبة صدره يراقب
النجم والنوم يجافيه.

وكعب الغنوي قد هزل جسمه وأصابه النحول لتركه الطعام حزناً على فقد
أخيه أبي المغوار، وقال في ذلك (1):

تقول سُلَيْمَى: مَا لِحِسْمِكَ شَاحِبًا كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الطَّعَامَ طَبِيبُ
فَقُلْتُ شُجُونٌ مِنْ خُطُوبٍ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ كِبَارٍ وَالزَّمَانُ يُرِيبُ

وخبر موت الأخ يزلزل الكيان ويجعل الجسد مختلاً ومضطرباً، وكأن
الشرار يتطاير من الجنين فيصاب الجسد بالدوار ، ولا ترى العين أمامها كما تفعل
الخمير بشاربها وهذا ما عبّر عنه المهلهل بن ربيعة واصفاً حالته عندما سمع بخبر
مقتل أخيه كليب، فقال (2):

كَأَنِّي إِذْ نَعَى النَّاعِي كَلِيبًا تَطَاوَرَ بَيْنَ جَنْبَيَّ الشَّرَارُ
فَدُرْتُ وَقَدْ عَاشَا بَصْرِي عَلَيْهِ كَمَا دَارَتْ بِشَارِبِهَا الْعُقَارُ

وقد يصحب الألم الجسمي لفقد الأخ مشيب الرأس، وفي ذلك يقول
المهلهل (3):

يَا قَتِيلًا نَمَاهُ فَرْعٌ كَرِيمٌ فَقَّهُ قَدْ أَشَابَ مِنِّي الْمِسَاحَا

وتذكر الخنساء ما أصاب جسمها من ضعف وقد تفتت عظامه لعدم احتمالها
فقد أخيها صخر، فتقول (4):

دَقَّ عِظَامِي وَهَاضَ مِنِّي جَنَاحِي هَلْكَ صَخْرٌ فَمَا أُطِيقُ بَرَا حَا

والشيب من أدلة زيادة الحزن والهم حيث تلحق بصاحبه الشيخوخة وهو في
سن الشباب، وتعبر عن ذلك الخنساء في رثاء أخيها صخر، بقولها (5):

(1) الأندلسي، العقد الفريد: 233/2.

(2) المهلهل، الديوان، ص30.

(3) المصدر نفسه، ص22؛ المساح: شعر جانبي الرأس.

(4) الخنساء، الديوان، ص241.

(5) المصدر نفسه، ص15.

تَقُولُ نِسَاءً شَبِتَ مِنْ غَيْرِ كِبَرَةٍ وَأَيْسَرُ مِمَّا قَدْ لَاقَيْتُ يَشِيبُ
أَقُولُ أَبَا حَسَنٍ لَا الْعَمْرُ طَيِّبٌ وَكَيْفَ وَقَدْ أَفْرَدْتُ عَنْكَ يَطِيبُ

وموت الأخ قد يفقد الإحساس بلذة الحياة وبهجتها، فلا يكون هناك حرص على الحياة، وفي هذا المعنى يقول حارثة بين العبيد الكلابي (1):

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَوْتِ الْمُعَلَّى مِتُّ أَوْ حُزَّ مِنْ يَمِينِي بَنَانِي
إِنَّمَا شَيْبَ الذُّؤَابَةِ مِنِّي وَبَرَّانِي تَتَاطَرُ الْإِخْوَانِ

إن فقد أخيه جعله يتمنى الموت قبل أن يسمع نبأ مقتل أخيه، ويقول إن مشيب شعر رأسه قبل الأوان ناتج من حزنه الشديد على فقد الإخوة الذي لا يمكن احتماله.

وفقد الأخت لأخيها يزلزل كيانها ويصيبها بالآلام لا تحتل ، وتعبر أسماء أخت كليب عن الآلام الجسدية والنفسية التي لحقت بها عندما قتل أخوها كليب فتقول (2):

يَا قَتِيلًا قَتَلَهُ جَرَّعَنِي عِنْدَ فَقْدِهِ نَقَعَ الْحَنْظَلِي
صِرْتُ فِي لُجَّةٍ بَحْرٍ زَاخِرٍ صَدَاءُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَنْزِلِ
لَيْتَنِي مَا عِشْتُ يَوْمًا بَعْدَهُ لَيْتَنِي قَرَّبَ مَوْتِي أَجْلِي
أُسَلِّبُوا عَقْلِي وَرُوحِي بَعْدَهُ فَهَمُومِي بَعْدَهُ لَا تَتَجَلَّى
لَا صَفَا عَيْشٍ وَقَدْ غَابَ فَتَى لَيْتَ نَفْسِي خَرَجَتْ مِنْ هَيْكَلِي

إن فقد أخيها جعلها لا تطيق الحياة وكأنها قد تجرعت الحنظل وسقطت في بحر موجه شديد يعصف بها فتتمنى أن لو تنزع روحها من جسدها فتموت.

وتعبر ليلي بنت سلمى عن أثر خبر موت أخيها في شيب شعر رأسها إضافة إلى الألم الجسدي والاضطراب الذي ألم بها، فتقول (3):

نَعَاهُ لَنَا النَّاعِي فَلَمْ نَلَقَ عِبْرَةً بَلَى حَسْرَةً تَبَيَّضُ مِنْهَا الْغَدَائِرُ
كَأَنِّي غَاةٌ اسْتَعْلَنُوا بِنَعْيِهِ عَلَى النَّعْشِ يَهْفُو بَيْنَ جَنْبَيَّ طَائِرُ

(1) الطائي، الوحشيات، ص128.

(2) ميدان، شعر تغلب في الجاهلية: 212.

(3) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص143.

وقد يجعل موت الأخ الدنيا ظلاماً لا شمس فيها، وفي ذلك يقول المهلهل⁽¹⁾:

لَمَّا نَعَى النَّاعِي كُلِّيًّا أَظْلَمَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَمَا تُرِيدُ طُلُوعَا

وتصاب رائطة بنت شيزم بالآلم نفسية وجسدية شديدة لفقد أخويها مسعود وحاتم كأنها قد أصيبت بالشلل في يديها ، وكأنها مثل الطير الذي قص ريشه فلا يطير وأرجله لا تحمله فتقول⁽²⁾:

كَانَا يَدَيَّ فَشَلَّتَا بِالسَّاعِدَيْنِ وَبِالْمَعَاصِمِ
فَبَقِيتُ كَالطَّيْرِ الْمُقَصَّصِ رِيشُهُ وَاهِي الْقَوَادِمِ

3.3 العزاء والسلو:

إن فقد الأخ يسبب الحزن والأسى والآلم الذي يلزمه مع مرور الوقت قدر من العزاء والسلو للتخفيف من حدة الحزن ومواجهة المعاناة والآلم. "والعزاء لغالب صبر على كل ما فقدت، ويقال : عزيت تعزية وعزاء، أي أسيته وضربت له الأسى، وصبرته، وتعازى القوم: عزى بعضهم بعضاً. أمّا السلو فهو من سلا يسلو ... وسلا عنه سلواً وسلواً وسلواناً: أي نسيه، وأسلاه عنه فتسلل أنهب ما في نفسه من الغيظ والحزن، فانكشف عنه، والسل والسلوان: مصدران".

ويخرج الرثاء من معاني التفجع والحزن إلى معاني الصبر والأمل والرجاء عن طريق العزاء والسلو.

وقد يكون كثرة الباكين خير عزاء للمصاب مثال ذلك قول الخنساء⁽³⁾:
فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

(1) المهلهل، الديوان، ص50.

(2) ابن منقذ، المنازل والديار، ص448-449.

(3) الخنساء، الديوان، ص326.

ويُتَرَى أَن هُنَاكَ كَثِيرٌ أَمَّنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَبْكُونَ عَلَى فَقْدِ إِخْوَتِهِمْ ، فَلَيْسَ أَمَامَهَا إِلَّا أَنْ تَتَأْسَى فَنَقُولُ (1):

وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُسْلِيَ النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى
وَتَحَاوَلَ الْخَنَسَاءُ أَنْ تَكْفِكَ دُمُوعَ عَيْنَيْهَا لِتَسْتَرِيحَ مِنَ الْبُكَاءِ وَأَنْ تَتَحَلَّى
بِالصَّبْرِ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ مِنْ ضَرْبِ الْوُجُوهِ بِالْأَنْعَالِ وَمِنْ حَلْقِ الرُّؤُوسِ، فَنَقُولُ (2):

هَرِيقِي مِنْ دُمُوعِكَ وَاسْتَفِيقِي وَصَبْرًا إِنْ أَطَقْتَ وَلَنْ تُطِيقِي
بِعَاقِبَةِ فُلٍّ الصَّدْبَرِ خَيْرٌ مِنَ النَّعْلَيْنِ وَالرُّأْسِ الْحَلِيقِ

وَيَحَاوَلُ بَشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ أَنْ يَتَأْسَى وَيَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ عَلَى حُزْنِهِ لِفَقْدِ أَخِيهِ
سَمِيرٍ، فَيَقُولُ إِنْ الْمَوْتَ لَا مَفْرَ مِنْهُ وَإِنَّهُ سَيَصِيبُ كُلَّ حَيٍّ (3):

وَكُلُّ نَفْسٍ أَمْرِي وَإِنْ سَلِمَتْ يَوْمًا سَتَحْسُو لِمِيتَةٍ جُرَعَا
ثُمَّ يَنَاشِدُ نَفْسَهُ أَنْ تَتَحَمَلَ الْأَلَمَ وَتَصْبِرَ لِأَنَّ الْبُكَاءَ لَمْ يَعِدْ بِفَيْدِهَا، فَيَقُولُ (4):

أَيَّتُهَا النَّفْسُ اجْمَلِي جَزَعَا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَيَقْرَأُ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ بِأَنَّهُ لَا مَفْرَ مِنَ الْمَوْتِ، وَلِذَا فَلَيْسَ هُنَاكَ دَاعٍ إِلَى الْجَزَعِ
عَلَى مَوْتِ أَخِيهِ، فَيَقُولُ (5):

أَتَجَزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارِعُ
وَلَمَّا كَانَتْ الدُّنْيَا دَارَ فِرَاقٍ فَلَا بَدَّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى فَقْدِ الْأَخِ، وَقَدْ تَحَلَّى أَبُو
خُرَاشٍ الْهَذَلِيُّ (6) عِنْدَ فَقْدِ أَخِيهِ عُرْوَةَ بْنِ مَرَّةٍ بِالصَّبْرِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ (7):

(1) الْخَنَسَاءُ، الدُّيُونُ، ص 327.

(2) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 62.

(3) ابْنُ أَبِي خَازِمٍ، الدُّيُونُ، ص 94.

(4) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 94.

(5) ابْنُ رَبِيعَةَ، الدُّيُونُ، ص 172.

(6) هُوَ خُوَيْلِدُ بْنُ مَرَّةٍ بْنِ قُرْدِ بْنِ تَمِيمٍ بْنِ مَعَدِ بْنِ هَازِلٍ كَانَ فَارِسًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاتَكَأَ وَعَدَاءُ، لَا تَدْرِكُهُ الْخَيْلُ، وَكَانَ لَهُ سَبْعَةُ أَخَوَاتٍ كُلُّهُنَّ عَدَاوُونَ، تَأَخَّرَ فِي الدُّخُولِ لِلْإِسْلَامِ، ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ.

(7) الْمُبَرَّدُ، أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ (ت: 286هـ)، (د.ت)، الْكَامِلُ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ، مَوْسُئَةُ الْمَعَارِفِ، بَيْرُوتَ، لُبْنَانُ: 313/2، وَانْظُرْ: الْهَذَلِيُّ، الدُّيُونُ: ص 116.

تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ عُرْوَةٍ لَاهِيَا وَذَلِكَ رُزْءٌ لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أُمِّمَ جَمِيلُ

ويتأسى صخر بن عمرو الشريد ي على فقدته أخاه معاوية بأنه لم يقل له يوماً كذبت، وإنه لم يبخل عليه بمال، وهذا ما يخفف عنه ألم فقدته أخاه، فيقول(1):
وَهَوْنٌ وَجَدِي أَنَّنِي لَمْ أَقُلْ لَهُ كَذَبْتَ وَلَمْ أَبْخُلْ عَلَيْهِ بِمَالِيَا
وقى سعدى بنت الشمر دل الج هيبية أن البكاء لا يمنع وقوع المكروه، وأن الموت سيلحق بالآخرين كما لحق بالأولين ؛ ولهذا يجب أن تتحلى بالصبر على فقد أخيها أسعد، فتقول(2):

وَلَقَدْ بَا لِي قَبْلُ فِيمَا قَدْ مَضَى وَعَلِمْتُ ذَاكَ لَوْ أَنَّ عَلِمًا يَنْفَعُ
أَنَّ الْحَوَادِثَ وَالْمَنُونِ كِلَاهُمَا لَا يُعْتَبَانِ وَلَوْ بَكَى مَنْ يَجْزَعُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ كُلَّ مُؤَخَّرٍ يَوْمًا سَبِيلَ الْأَوَّلِينَ سَيَتَّبِعُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنَّ عَلِيًّا نَافِعٌ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ ذَاهِبٌ فَمُودَعٌ

وتحاول ليلى بنت سلمى أن تخفف من ألمها متحلية بالصبر فتذكر نفسها بأنها ستموت يوماً وتلحق بأخيها؛ لأن الموت مكتوب على كل حي، فتقول(3):
وَهَوْنٌ وَجَدِي أَنَّنِي سَوْفَ أُغْتَدِي عَلَى إِثْرِهِ وَإِنْ طَالَ بِي الْعُمُرُ
وتتأسى عمرة أخت عمرو نالكيلب الهذلي على فقد أخيها بأن طول العيش غير مرغوب؛ لأن فيه ألماً فلا بد من الموت في النهاية والدهر لا يغلبه أحد، فتقول(4):

تَعْلَمَنَّ أَنَّ طُولَ الْعَيْشِ تَعْذِيبُ وَأَنَّ مَنْ غَالَبَ الْأَيَّامَ مَغْلُوبُ
وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا طَرِيقُهُمْ فِي الشَّرِّ دُعْبُوبُ

(1) المبرد، الكامل في اللغة والأدب: 111/1.

(2) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص124-125.

(3) المرجع نفسه، ص142.

(4) البحتري، الحماسة، ص273، الدعبوبة: الطريق، عدل الموطو الواضح.

4.3 التآبين (ذكر خصال الأخ المرثي):

التآبين لغة من آبن الرجل تآبيناً؛ أي مدحه بعد موته وبكاه، وقال شمر :
التآبين على الرجل في الموت والحياة، وقال ابن سيدة : وقد جاء في الشعر
للحي... والتآبين اصطلاحاً للثناء على الميت وتعداد صفاته، والبكاء عليه بعبارات
مؤثرة⁽¹⁾.

وتآبين الأخ في الشعر الجاهلي يتمثل في جعل الأخ مثلاً رائعاً يقتدى به في
الكرم والشجاعة والعفة، والحلم والوفاء، والحزم والإباء، والحسب والنسب،
والفصاحة والصبر.

أ. الكرم:

يعد الكرم من أبرز الخصال التي مجّد ها الشعر الجاهلي، وتحمل هذه الصفة
العديد من المعاني السامية، منها الإيثار وإكرام الضيف والجار والأرامل
والمحتاجين والصديق.

"والكرم صفة خلقية عرفها العربي وتمسك بها أشد تمسك حتى وصلت إلى
درجة الافتخار والتباهي، وطبيعة العربي تفرض عليه الكرم، فهو يعيش في بيئة
فقيرة وصحراء مجربة يندر فيه العيش الرفاهية والاستقرار، وتكثر فيها الحاجة إلى
التنقل والارتحال والتعرض إلى حالات الجوع والعطش، وسلب الأموال، والافتقار،
لذا عمد العربي إلى إكرام غير ه وإيوائه، من أجل أن يجد يداً تسنده إذا دهاه
الدهر"⁽²⁾.

ويصف متمم بن نويرة أخاه مالكا بأنه يستجيب لدعوة الكرم في الوقت الذي
يخل فيه الأغنياء غير مهتمين بالجياح، فيقول⁽³⁾:

لَبِيباً أَعَانَ اللَّبَّ مِنْهُ سَمَاحَةً خَصِيْباً إِذَا مَا رَاكَ بُ الْجَدْبِ أَوْضَعَا
تَرَاهُ كَصَدْرِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلْنَدَى إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ امْرِئِ السَّوْءِ مَطْمَعَا

(1) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص 165-166.

(2) العواحي، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 39.

(3) الضبي، المفضليات، ص 265.

ويعبر كعب الغنوي عن استجابة أخيه أبي المغوار لدعوة الكرم، فيقول⁽¹⁾:
فَتَى أَرِيحِي كَانَ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى كَمَا اهْتَزَّ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ قَاضِبُ
ويصف المهلهل بن ربيعة أخاه كليباً بكرم ه وجوده في أنه يطعم من أفضل
النياق، فيقول⁽²⁾:

النَّاحِرُ الْكَوْمَ مَا يَنْفَكُ يُطْعِمُهَا وَالْوَاهِبُ الْمِنَّةَ الْحَمْرَا بِرَاعِيهَا
ومن الكرم الشديد أن يعطي الكريم كل شيء يطلب منه، وفي هذا يصف لبيد
أخاه أربد فيقول⁽³⁾:

فَتَى كَانَ أَمَّا كُلُّ شَيْءٍ سَأَلْتَهُ فَيُعْطِي وَأَمَّا كُلُّ ذَنْبٍ فَيَغْفِرُ
وتصف الخنساء أخاها صخرًا بالكرم ، حيث إن الضيوف يقبلون إلى بيته
فيمدحه الناس بذلك، فتقول⁽⁴⁾:

جَمُوعُ الضُّيُوفِ إِلَى بَيْتِهِ يَرَى أَفْضَلَ الْكَسْبِ أَنْ يُحْمَدَا
وتشير الخنساء إلى صفة الكرم والبذل والعطاء في شخص أخيه صخر، ثم
تصفه بقدرته على مواجهة من يسيء إليه، فتقول⁽⁵⁾:

وَعَطَايَا يَهْزُهَا بِسَمَاحٍ وَطِمَاحٍ لَمَنْ أَرَادَ طِمَاحَا
ويصف لبيد بن ربيعة أخاه أربد بكرمه الشديد ، حيث يقدم للضيف ما يشتهيهِ
من الطعام حتى يأخذ حاجته من الطعام، فيقول⁽⁶⁾:

فَتَى عَارِفٌ لِلْحَقِّ لَا يُنْكِرُ الْقِرَى تَرَى رَفْدَهُ لِلضَّيْفِ مَلَانَ مُتْرَعَا
وقد يبالغ الأخ في قصر صفة الكرم على أخيه دون غيره، لأن الكرم بعد
موته لا يجد من هو أهلاً له، وفي ذلك المعنى يقول كعب الغنوي في رثاء أخيه أبي
المغوار⁽⁷⁾:

(1) الأصمعي، الأصمعيات، ص93.

(2) المهلهل، الديوان، ص92.

(3) ابن ربيعة، الديوان، ص167.

(4) الخنساء، الديوان، ص146.

(5) المصدر نفسه، ص242.

(6) ابن أبي ربيعة، الديوان، ص173.

(7) الأندلسي، العقد الفريد: 234/3.

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
فَقُلْتُ أَدْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتُ ثَانِيًا لَعَلَّ أَبَا الْمَغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبٌ
يُجِيبُكَ كَمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ إِنَّهُ بِأَمثَالِهِ رَحْبُ الذَّرَاعِ أَرِيبٌ

فالمحتاجون يطلبون من الكرماء أن يطعموهم فلا يجد بينهم أحد فيطلب، كعب
منهم تكرار النداء ربما يجيبهم أبو المغوار الذي اعتادوا منه الكرم.

ونجد المعنى نفسه عند الخنساء، إذ تشير إلى كرم أخيها صخر، وبعد أن
مات لم يجد الضيف من يكرمه، فتقول⁽¹⁾:

مَنْ لَضَيْفٍ يَحُلُّ بِالْحَيِّ عَانَ بَعْدَ صَخْرٍ إِذَا أَرَادَ مِ يَاحَا
وتجعل الخنساء أخاها صخرًا يفوق المطر كرمًا إذا ما المطر نزل بغزارة
على أرض جدياء تحتاج إليه ، فإن صخرًا يكون أشد كرمًا وعطاءً لكل محتاج،
فتقول⁽²⁾:

وَمَا الْغَيْثُ فِي جَعْدِ الثَّرَى دَمَثِ الرُّبَا تَبَعَّقَ فِيهِ الْوَابِلُ الْمُتَهَلِّلُ
بِأَفْضَلِ سَيِّئًا مِنْ يَدَيْكَ وَنِعْمَةً تَعُمُّ بِهَا بَلْ سَيِّبُ كَفَيْكَ أَجْزَلُ
وتصف سعدى بنت الشمر دل أخاها أسعد بالكرم في إطعامه الجياع الذين
ركبوا المطي يسرعون إلى طلب من يغيثهم فيطعمهم فتقول⁽³⁾:

يَا مُطْعِمَ الرِّكَبِ الْجِيَاعِ إِذَا هُمْ حَثُّوا الْمَطِيَّ إِلَى الْقَرَى وَتَسَرَّعُوا
وأخوها لا يرد من يأتيه يسأله حاجة وقت الليل، حيث الهدوء والناس نيام،
لأنه كثير الكرم يمد يديه بالعطاء لكل سائل فتقول سعدى⁽⁴⁾:

إِنْ تَأْتِهِ بَعْدَ الْهُدُوءِ لِحَاجَةٌ تَدْعُو يُجِيبُكَ لَهَا نَجِيبٌ أَرْوَعُ
مُتَحَلِّبُ الْكَفَّينِ أَمِيتُ بَارِعُ أَنْفُ طَوَالِ السَّاعِدَيْنِ سَمِيدَعُ

(1) الخنساء، الديوان، ص242، الضيف: النازل، العان: الأسير، مياحًا: عطية وفضلاً.

(2) المصدر نفسه، ص320-321؛ تبعق فيه: حل فيه وتفجر به.

(3) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص126.

(4) المرجع نفسه، ص126.

ويرى بشر بن أبي خازم أن الضيف والمجالس ستفتقد أخاه سميراً الكريم
الجواد بالعطاء، وستبكيه المرأة الفقيرة حين تسكت ولدها حين يبكي من الجوع
وليس في ثديها لبن من شدة الفقر، وسيبكيه الرجل السمين حين يهزل ويضعف من
شدة الجوع، وفي ذلك يقول (1):

لِيُبْكِكَ الضَّيْفُ وَالْمَجَالِسُ وَالْـ حَيُّ الْمُخَوِّي وَطَامِعُ طَمَعًا
وَذَاتُ هِدْمٍ بَادٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْبَلًا جَدِيعًا
إِذْ شُبَّةُ الْهَيْدَبِ الْعَبَامُ مِنَ الـ أَقْوَامٍ سَقْبًا مُحَلَّلًا فَرَعَا

ويكون الكرم في أروع صوره وقت الشدة والظروف القاسية كالجدب العام
والجفاف والشتاء؛ ويصف لبيد بن ربيعة صورة الكرم عند أخيه أربد حين يبخل
الناس بما يملكون لشدة البرد وقت الشتاء، حيث يقتسم الأغنياء الذبيحة ولا يجودون
بها للفقراء والمحتاجين، ولكن أربد لا يتكرر للسائل والضيف، وفي ذلك يقول (2):

أُبْكِي أَبَا الْحَزَّازِ يَوْمَ مَقَامَةٍ لِمُنَاخِ أَضْيَافٍ وَمَأْوَى مُقْتَرٍ
وَالْحَيُّ إِذْ بَكَرَ الشِّتَاءُ عَلَيْهِمْ وَدَعَتْ شَامِيَةً بِيَوْمٍ مُقْمَرٍ
وَتَقَنَّعَ الْأَبْرَامُ فِي حُجْرَاتِهِمْ وَتَجَزَّأَ الْأَيْسَارُ كُلَّ مُشَهَّرٍ
أَلْفَيْتَ أَرْبَدَ يُسْتَضَاءُ بِوَجْهِهِ كَالْبَدْرِ غَيْرَ مُقْتَرٍ مُسْتَأْثَرٍ

وينفي دريد بن الصمة البخل عن أخيه إذا ما اشتدت الرياح الباردة وقت
الشتاء، وأتى إليه السائلون فيقول (3):

وَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشَ الْيَدِ
وَلَا بَرَمًا إِذَا الرِّيحُ تَتَاوَحَّتْ بِرَطْبِ الْعِضَاهِ وَالضَّرِيحِ الْمُعْضَدِ

-
- (1) ابن أبي خازم، الديوان، ص95، الهيدب: الغبي الجافي الخلقة، السقب: ولد الناقة.
(2) ابن ربيعة، الديوان، ص166.
(3) الجشمي، الديوان: 49؛ البرم المشاركة في الميسر، العضاه: ما عظم من شجر الشوك،
والهيثم نبت له شوك.

وَيَصِفُ كَعْبُ الْغَنَوِيِّ أَخَاهُ أَبَا الْمَغَوَارِ بِكَثْرَةِ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ لِلضُّيُوفِ وَقَتِ
اشْتِدَادِ الْبَرْدِ فِي الشِّتَاءِ، فَيَقُولُ (1):

أَخُو شَتَوَاتٍ يَعْلَمُ الضَّيْفُ أَنَّهُ سَيَكْثُرُ مَا فِي قَدْرِهِ وَيَطِيبُ

وَيَجْعَلُ لِبَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ النَّاسِ يَعْرِفُونَ فَضْلَ أُرْبَدٍ فِي الشِّتَاءِ حِينَ يَشْتَدُّ حَالُ
النَّاسِ، وَتَقُلُّ الْأَلْبَانُ فَيَقُولُ (2):

يُفَضِّلُهُ شِتَاءُ النَّاسِ مَجْدٌ إِذَا قَصَرَ السُّتُو عَلَى الْبِ رَامٍ

وَتَصِلُ الْخَنَسَاءُ كَرَمَ أَخِيهَا صَخْرٍ إِذَا اشْتَدَّتْ الرِّيحُ الْبَا رِدَةً شِتَاءً، وَنَقَصَ
أَلْبَانُ الْإِبِلِ الَّتِي هَزَلَتْ جَسْمَهَا، وَضَنَّ النَّاسُ بِمَا لَدَيْهِمْ، فِي هَذَا الْوَقْتِ يَكُونُ بَيْتُ
صَخْرٍ مَفْتُوحًا لِلضُّيُوفِ، وَتَقُولُ فِي ذَلِكَ (3):

فَمَنْ لِلضَّيْفِ إِنْ هَبَّتْ شَمَالٌ مُزْعَزَعَةً تُتَوَحَّحُهَا صَبَاها

وَأَلْجَأَ بَرْدُهَا الْأَشْوَالَ حُدْبًا إِلَى الْحَجَرَاتِ بَادِيَةً كُلاها

هُنَالِكَ إِنْ نَزَلَتْ بَبَيْتِ صَخْرٍ قَرَى الْأَضْيَافَ شَحْمًا مِنْ ذُرَاهَا

وَفِي السَّنَةِ الشَّدِيدَةِ الْمَجْدِبَةِ قَلِيلَةُ الْمَطَرِ شِتَاءً تَعْصِفُ فِيهَا الرِّيحُ الْبَارِدَةُ، وَقَدْ
عَانَى الْفُقَرَاءُ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّ صَخْرًا يَطْعَمُ السَّائِلِينَ مِنْ لَحْمِ الْإِبِلِ فِي وَقْتِ ارْتِفَاعِ
فِيهِ ثَمَنُهَا فَلَا يَبْخُلُ عَلَى السَّائِلِينَ وَالضُّيُوفِ بِأَعْلَى مَا لَدَيْهِ لِأَنَّهُ فَيَاضٌ كَرِيمٌ، وَفِي
ذَلِكَ تَقُولُ الْخَنَسَاءُ (4):

وَمُنْزِلِ الضَّيْفِ إِنْ هَبَّتْ مُجْلَجَلَةٌ تَرْمِي بِصُمِّ سَرِيعِ الْخَسْفِ وَسَافٍ

أَبَا الْيَتَامَى إِذَا مَا شَتَوَةٌ جَحَرَتْ وَفِي الْمَرَاحِفِ ثَبَتٌ غَيْرُ وَقَافٍ

وَتَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى (5):

مَعْقِلُ النَّاسِ إِذَا مَا عَصَفَتْ جَرَبِيَاءُ الرِّيْحِ فِيهَا بِالْحَظَرِ

يُطْعَمُ الْقَوْمُ مِنَ الشَّحْمِ إِذَا أَغْلَتِ الشَّتَوَةُ أَثْمَانَ الْجُزُرِ

(1) الْأَصْمَعِيُّ، الْأَصْمَعِيَّاتِ، ص 95.

(2) ابْنُ رَبِيعَةَ، الدِّيَوَانُ، ص 208.

(3) الْخَنَسَاءُ، الدِّيَوَانُ، ص 282-283.

(4) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 408، 409.

(5) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 410، الْجَرَبِيَاءُ: الشَّمَالُ، وَالْحَظَرُ: مَا يَحْظَرُ بِهِ مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرِ.

وتذكر جنوب أخت عمرو ذي الكلب كيف أن الضيوف والنساء الأرامل إذا
نفد زادهن وهبت ريح الشمال الباردة حيث يقل الرزق، وتتقطع السبل ويثقل فيه
الضيف وعجزت الأمهات عن إرضاع أطفالهن لهن من الجوع كان أخوها
المغيث لهم بكرمه وجوده وعطاياه، وتقول في ذلك (1):

وقَدْ عَلِمَ الضَّيْفُ والمُرْمِلُونَ إِذَا اغْبَرَّ أَفْقٌ وَهَبَتْ شَمَالًا
وَحَلَّتْ عَنْ أَوْلَادِهَا المُرْضِعَاتُ فَلَمْ تَرَ عَيْنَ لِمُزْنٍ بِلَالًا
بِأَنَّكَ كُنْتَ الرِّبِيعَ المُرِيْعَ وَكُنْتَ لِمَنْ يَعْتَفِيكَ الثَّمَالًا

ويصف متمم بن نويرة أخاه مالكا بأنه كريم كمطر الصيف والربيع إذا هبت
ريح الشمال شتاء، وحل الضيف ببيته، فإن الضيف لا يذل في جواره وينعم بكرمه
وحمايته، وفي ذلك يقول (2):

لَهُ تَبَعٌ قَدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ عَلَى مَنْ يُدَانِي صَيْفٌ وَرَبِيعٌ
وَرَأَحَتْ لِقَاحُ الحَيِّ جُذْبًا تَسْوِقُهَا شَامِيَّةٌ تَرَوِي الوجُوهَ سَفُوحُ
وَكَانَ إِذَا مَا الضَّيْفُ حَلَّ بِمَالِكٍ تَضَمَّنَهُ جَارٌ أَشْمٌ مَنِيعٌ

ويصف أعشى باهلة أخاه المنتشر بأنه متشمر لإطعام السائلين وقومه في
السنة الشديدة والليلة التي لا ماء فيها يشرب ولا شجر يرعى، فيقول (3):

طَاوِي المَصِيرَ عَلَى العِزَاءِ مُنْجَرِدٌ بِالقَوْمِ لَيْلَةً لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرٌ

ويصف النابغة أخاه بأنه حسن الخلق، جميل التعطف وقت القحط على
الفقراء والمساكين مقدماً لهم الإبل السمان، وكان يدخل عليهم بالأعباء الثقيلة فيحملها
على جاهه وما له لأقاربه والسائلين، فيقول في ذلك (4):

سَهْلُ الخَلِيقَةِ مَشَاءً بِأَقْدَحِهِ إِلَى ذَوَاتِ الذَّرَى حَمَالٌ أَثْقَالِ

(1) مارديني، شواعر الجاهلية، ص 234، 235.

(2) الضبي، المفضليات، ص 272.

(3) القرشي، جمهرة أشعار العرب، 718/2.

(4) النابغة الذبياني، الديوان: 98.

وفي ليلة شديدة البرد، لا يستطيع الكلب أن ينبح، ولا أن تسري الأفاعي فيها
يظهر كرم أخجنوب الشاعرة، فيطعم الجياع الإبل السمان ، وفي ذلك تقول جنوب
أخت عمرو ذي الكلب⁽¹⁾:

وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِي بِالْفَرثِ جَازِرُهَا يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعِشَاءِ وَلَا تَسْرِي أَفَاعِيهَا
أَطْعَمَتْ فِيهَا عَلَى جُوعٍ وَمِسْغَبَةٍ شَحْمَ الْعِشَارِ إِذَا مَا قَامَ بَاغِيهَا

ويصف بشر بن أبي خازم أخاه سميراً وقد كان يحفظ الناس في سنوات
الجدب والقحطيث ينحر الناس الفصال حفاظاً على أمهاتهم^١ وعلى ألبانها، وتهب
رياح الشمال الباردة، ويضطر الـ رجل أن يستأثر بكسائه دون زوجه ويطعم أخوه
حينذاك الناس عام تأكل الفتاة المنعمة من الطعام ما يأكله الأسد بعد أن كانت تعاف
اللذيذ منه من شدة الجوع، كمنله أيخلف ماله للمحتاجين ويتلفه في الجود والكرم،
وفي ذلك يقول⁽²⁾:

وَالْحَافِظَ النَّاسِ فِي الْقُحُوطِ إِذَا لَمْ يُرْسِلُوا تَحْتَ عَائِذِ رُبْعَا
وَهَبَّتْ الشَّمَالُ الْبَلِيلُ وَقَدْ أَضْحَى كَمِيعَ الْفَتَاةِ مُلْتَفَعَا
عَامَ تَرَى الْكَاعِبَ الْمُنْعَمَةَ الـ حَسَنَاءَ فِي دَارِ أَهْلِهَا سَبْعَا
الْمُخْلَفَ الْمُتْلَفَ الْمُفِيدَ إِذَا قَالَ فَلَا عَائِبَ لِمَا صَنَعَا

ومن صور الكرم والسخاء الشديد ما وصف به كعب بن سعد الغنوي أبا
المغوار من كرم، حيث يكثر زيارته الأحابـ والأصحاب، فيجدون عنده ما يسرهم
ولا يطرق الزوار إلا بيته لكرمه وحسن استقباله^٤ الضيوف، ثم يصفه بأنه حليف
الندى، ويغيث الملهوف ويكرم الضيف، وفي ذلك يقول كعب مصوراً أخاه في غاية
الجود والسخاء⁽³⁾:

(1) الهذليين، الديوان، ص126.

(2) ابن أبي خازم، الديوان، ص94.

(3) لقرشي، جمهرة أشعار العرب : 251/2؛ خلات: صفات من الخلـة وهي الصفة، ما بهن
عريب: أي ما بهن أحد. المنقيات: ذوات الشحم.

حَبِيبٌ إِلَى الزُّوَارِ غَشِيَانَ بَيْتِهِ
كَأَنَّ بُيُوتَ الْحَيِّ مَا لَمْ يَكُنْ بِهَا
مُغِيثٌ مَفِيدٌ مُلْقَى الْفَائِدَاتِ مُعَوِّدٌ
فَتَى مَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجِسْمِهِ
حَلِيفُ النَّدَى يَدْعُو النَّدَى فَيَجِيبُهُ
غَاثٌ لَعَانٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ
عَظِيمُ رَمَادِ النَّارِ رَحِبَ فَنَائُوهُ
بَيْتُ النَّدَى يَا أُمَّ عَمْرٍو ضَجِيعُهُ

جَمِيلُ الْمُحْيَا شَبَّ وَهُوَ أَدِيبٌ
بَسَابِسُ قَفَرٍ مَا بِهِنَ عَرِيبٌ
لِفَعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرَمَاتِ نَدُوبٌ
إِذَا نَالَ خِلَاتِ الْكِرَامِ شُحُوبٌ
سَرِيعاً وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيَجِيبُ
وَمَخْتَبِطٌ يَغْشَى الدُّخَانَ غَرِيبٌ
إِلَّا سَنَدٌ لَمْ تَجْتَحِ عِيُوبُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمَنْقِيَاتِ حَلُوبٌ

وَيَصِفُ أَعْشَى بَاهِلَةَ أَخَاهُ الْمُنْتَشِرَ الْكَرِيمَ إِذَا أَشَدَّ تَدَ الزَّمَانِ وَقَلَّتِ الْمُرَاعِي
وَأُجْدِبَتِ الْأَرْضُ وَتَغَيَّرَتْ مَلَامِحُ الْإِبِلِ مِنَ الْهَزَالِ فَإِنَّهُ يَصْبِحُ مُلْجَأً لِلْمَحْتَاجِينَ
وَالْفُقَرَاءِ، فَيَتَوَلَّى إِطْعَامَهُمْ، حَتَّى أَنْ الْإِبِلَ يَزْدَادُ خَوْفَهَا لَمَّا رَأَتْهُ مِنْ كَثَرَةِ الذَّبْحِ
لِيَقْدِمَهُ لِلضُّيُوفِ، وَيَبْدُو هَذَا الْمَشْهَدُ فِي قَوْلِهِ (1):

تَتَعَى امْرَأً لَا تَغْبُ الْحَيَّ جَفَنَتْهُ
وَرَأَتْ الشَّوْلَ مُغْبَرًا مَنَاقِبُهَا
وَأَجْحَرَ الْكَلْبُ مُبْيَضُ الصَّقِيعِ بِهِ
عَلَيْهِ أَوَّلُ زَادِ الْقَوْمِ قَدْ عَلِمُوا

إِذَا الْكَوَاكِبُ خَوَّى نَوَّعَهَا الْمَطَرُ
شُعْنًا تَغَيَّرَ مِنْهَا النَّيُّ وَالْوَبَرُ
وَضُمَّتْ الْحَيَّ مِنْ صُرَادِهِ الْحُجْرُ
ثُمَّ الْمَطِيُّ إِذَا مَا أَرْمَلُوا جُزُرُوا

وَإِذَا كَانَ الْأَخُ يَكْرُمُ الْأَقَارِبَ وَالضُّيُوفَ وَالْمَحْتَاجِينَ وَالْفُقَرَاءَ فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ
يَكُونَ كَرِيمًا مَعَ إِخْوَتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُوَصِّي بِهِ النَّمِرُ بْنُ تَوَلْبٍ زَوْجَتَهُ بِحَسَنِ اسْتِقْبَالِ
إِخْوَتِهِ وَإِكْرَامِهِمْ (2):

فَإِذَا أَتَانِي إِخْوَتِي فَدَعِيهِمْ
لَا تَطْرُدِيهِمْ عَنْ فِرَاشِي إِنَّهُ

يَتَعَلَّلُوا فِي الْعَيْشِ أَوْ يَلْهَوْا مَعِي
لَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ سَيَخْلُو مَضْجَعِي

(1) القرشي، جمهرة أشعار العرب، ج2، ص715.

(2) ابن تولب، الديوان، ص73.

واستقبال الضيف والترحيب به والبشاشة في وجهه من سمات الكرم
وعلاماته، ومن ذلك قول الخنساء بشاشة أخيها صخر عند استقباله للضيوف ،
فلا يقابلهم بوجه عابس ولا يستتر منهم⁽¹⁾:

إِذَا مَا الضَّيْفُ حَلَّ إِلَى دَارِهِ تَلَقَّاهُ بَوَجْهِ غَيْرِ بَسَرٍ
وَفَرَّجَ بِالنَّدَى الْأَبْوَابَ عَنْهُ وَلَا يَكْتَنُّ دُونَهُمْ بَسْتَرٍ

كحلف الخنساء ترحيبه بالضيف والسائل بوجه بشوش ومن شرح الصدر
فتقول⁽²⁾:

كَأَنَّ لَمْ يَقُلْ أَهْلًا لِطَالِبِ حَاجَةٍ بَوَجْهِ بَشِيرٍ الْأَمْرِ مُنْشَرِحِ الصَّدْرِ
ومن علامات الكرم أن يوقد الكريم ناراً ليهتدي بها الضيوف والسائلون إلى
بيته، وفي ذلك تقول الخنساء في أخيها صخر⁽³⁾:

فَإِذَا أَضَاءَ وَجَّاشَ مَرَجَلُهُ فَلَنَعْمَ رَبُّ النَّارِ وَالْقَدْرِ

ومما سبق نجد أن الشعر الجاهلي قد فاض في وصف الأخ بالكرم بصورة
المتعددة، وهذا يدل على قيمة هذه الفضيلة في المجتمع الجاهلي، واهتمام الأخ
الشاعر بإضفاء هذه الصفة على الأخ، فهي أهم صفة تبقى بعد موته.
ب. الشجاعة:

إن طبيعة الحياة العربية في الجاهلية كانت تتطلب الشجاعة والإقدام واقتحام
المخاطر، حيث كانت الحروب تشتعل بين القبائل لأسباب متعددة، والفارس لا بد أن
يتحلى بالشجاعة في الحرب والسلام.

وتصف الخنساء أباها معاوية بالشجاعة التي تزيد على شجاعة الآخرين
فتقول⁽⁴⁾:

أَلَا لَا أَرَى كِفَارِسَ الْجَوْنِ فَارِسًا إِذَا مَا عَلَتْهُ جُرْأَةٌ وَعَلَانِيَةٌ

(1) الخنساء، الديوان، ص188.

(2) المصدر نفسه، ص132.

(3) المصدر نفسه، ص11.

(4) المصدر نفسه، ص60.

كما تصف أخاها صخراً في شجاعته فيغدو كالأسد الذي يكشر عن أنيابه
فتقول (1):

حامي الحقيقة تَخَالَهُ عِنْدَ الْوَعَى أَسَدًا بَبِيْشَةً كَاشِرَ الْأَنْيَابِ
ثم تصف أ خاها صخراً في قصيدة أخرى في شجاعته بأنه أشجع من الليث
القوي فتقول (2):

أَشْجَاعُ فَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثَ عَرِينِ ذِي لِبْدَةٍ وَشِبَالِ
ويصف متمم بن نويرة أخاه مالكا بالشجاعة في الحرب ، فهو لا يجبن عند
اللقاء إذا أضعفت الحرب الرجال فيقول (3):

وَإِنْ ضَرَسَ الْغَزْوُ الرَّجَالَ رَأَيْتَهُ أَخَا الْحَرْبِ صِدْقًا فِي الْلِقَاءِ سَمِيدًا
ويصف أعشى باهلة شجاعة أخيه المنتشر في الحرب وعدم الخوف ، محققاً
النصر، فيقول (4):

أَخُو حُرُوبٍ وَمَكْسَابٍ إِذَا عَدِمُوا وَفِي الْمَخَافَةِ مِنْ جِدٍّ وَمِنْ حَذَرِ
ويصف بشر بن أبي خازم أخاه سميراً بالشجاعة عند اشتداد الأمور ، فيكون
من أهل الشجاعة والحمية والنجدة فيقول (5):

أَلَا يَا عَيْنُ مَا فَاكِى سَمِيرًا إِذَا صَعِرَتْ مِنَ الْغَضَبِ الْأَنْوْفُ
وتبدو الشجاعة في اختراق الصحراء الواسعة المجهولة على إبل تعاني من
شر الإعياء، يبدو هذا في وصف جنوب أخت عمرو ذي الكلب أخاها، فتقول (6):
وَحَرْقٍ تَجَاوَزَتْ مَجْهُولَهُ بَوْجَنَاءَ حَرْفٍ تَشَكَّى الْكَلَالَا

(1) الخنساء، الديوان، ص235.

(2) المصدر نفسه، ص346.

(3) اليزيدي، الأمالي، ص20؛ وانظر: الضبي، المفضليات، ص266.

(4) القرشي: جمهرة أشعار العرب، ص255.

(5) ابن أبي خازم، الديوان، ص87.

(6) مارديني، شواعر الجاهلية، ص235.

وتصف ناجية بنت ضمضم أخاها هرمًا بالشجاعة والهيبة يمتطي جواده وقد
تلتطخ بالدماء فتقول (1):

تراه على الخيل ذا قُدْمة إذا سربلَ الدَّمُ أَكْفَالَهَا
وتصف الفارسة القشيرية أخاها برباطة الجأش والشجاعة وعدم الفرار من
ميدان المعركة في الوقت الذي فر عنه أحلافه فتقول:
أضاعُوا به غيرَ عديدة كريمُ الصباحِ بعيدُ المزارِ
وتصف عمرة بن شداد أخاها بالشجاعة فلا ينتحي جانباً خشية مصائب
الناس فتقول (2):

ولا يحلُّ إذا ما حلَّ منتبذاً خوف الرزية بينَ الحضرِ والبادِ
وتصف سُعدى بنت الشمردل أخاها أسعد بأنه يقتحم الأودية م نفرداً دون
صحاب لا يخشى الظلام فتقول (3):

جَوَابِ أُوْدِيَةٍ بِغَيْرِ صَحَابَةٍ كَشَافِ دَاوِيِ الظَّلامِ مَشِيعُ
مما سبق تظهر صورة الأخ الشجاع في ميادين القتال الذي لا يعرف الجبن
والخوف وقت اشتداد المعركة، فهو كالأسد حيث إنه يجوب الأودية والصحراء
الواسعة بلا خوف من المخاطر والأهوال التي قد يتعرض لها.
والشجاعة من الصفات التي تَفْرِضُهَا بيئة العرب في الجاهلية ة ويجب أن
يتحلى بها العربي وقت الحرب والسلام.
الصبرُ والجلد:

الصبر والجلد من الصفات التي يستحب وجودها عند الرجال المحاربين منهم
وغير المحاربين، وطبيعة الحياة التي عاشها عرب الجاهلية تتطلب منهم الصبر
وعدم الجزع، فالبيئة القاسية، وحياة الجذب والقدر طتتطلب صبراً وتجلداً وقوة
تحمل.

(1) مارديني، شواعر الجاهلية، ص 302.

(2) الصباري، فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية: 69.

(3) الأصمعي، الأصمعيات، 101-102.

ويصف أعشى باهلة أخاه المنتشر بالجلد وشدة التحمل فلا يشتكي الساق من المشي، فيقول في ذلك (1):

لَا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا يَزَالُ أَمَامَ الْقَوْمِ يَفْتَقِرُ
ومدرج بن الصمة أخاه عبدالله بالصبر وقت الشدة ، فلا يتألم للمصائب التي تنزل بساحته بل يواجهها بالصبر، وفي ذلك يقول (2):

كَمِيشُ الْإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى الْعَزَاءِ طَلَّغٌ أَنْجِدُ
صَبُورٌ عَلَى رُزْءِ الْمَصَائِبِ حَافِظٌ مِنَ الْيَوْمِ أَدْبَارَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدٍ
والصبر دواء كل مصيبة ، ولهذا تصف الخنساء أخاها صخرًا بالصبر، حيث إن الصبر صفة متأصلة في أخيها، فتقول الخنساء (3):

كَرَاهِيَّةٌ وَالصَّبْرُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ إِذَا مَا رَحَا الْحَرْبُ الْعَوَانَ اسْتَدْرَتْ
الحلم:

الحلم هو ضبط النفس والسيطرة عليها عند الغضب، وقد جاء الحلم ضد الجهل الذي ساد في العصر الجاهلي، وعلى الرغم من شيوع الجهل والطيش والعنف في ذلك العصر إلا أنه كان هناك من يتصف بالحلم. ومن ذلك ما وصف به المهلهل بن ربيعة أخاه كليباً بالحلم والتسامح مع قدرته على البطش فيقول (4):

وَإِنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجَالٍ وَتَعْفُو عَنْهُمْ وَلَكَ اقْتِدَارُ
وتصف الخنساء أخاها صخرًا بالحلم والتمهل ، فلا يجهل كما يجهل غيره، فتقول في ذلك (5):

فَتَى كَانَ ذَا حِلْمٍ أَصِيلٌ وَتُوْدَةٌ إِذَا مَا الْحُبَا مِنْ طَائِفِ الْجَهْلِ حَلَّتْ

(1) القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: 719/2، الوجب: التعب.

(2) الجشمي، الديوان: 50.

(3) الخنساء، الديوان: ص196.

(4) المهلهل، الديوان، ص29.

(5) الخنساء، الديوان، ص418.

كما تصفه الخنساء إنه بحلمه يدفع الشر والجهل فتقول⁽¹⁾:

وَبِحِلْمٍ إِذَا الْجَهْلُ اعْتَرَاهُ يَرْدَعُ الْجَهْلَ بَعْدَمَا قَدْ أَشَاحَا

ويصف كعب الغنوي أخاه بالحلم الذي يشبه العسل الأبيض، أما جهله فيشبهه

الليث الغضوب، ولكن الحلم والعقل عنده يتغلبان على الجهل، فيقول في ذلك⁽²⁾:

لَقَدْ كَانَ أَمَّا حِلْمُهُ فَمُرَوَّحٌ عَلَيْنَا وَأَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبٌ
حَلِيمٌ إِذَا مَا سَوْرَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقَتْ حُبِّي الشَّيْبِ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غُلُوبٌ

العفة:

تعد العفة ترفعاً عن كل ما يسيء إلى المروءة أو يخدش الحياء أو الكرامة، وذلك قولاً وفعلاً.

ولا تقل العفة عن صفتي الكرم والشجاعة كونها شرطاً من شروط السيادة .
وتبدو في جوانب متعددة منها : العفة عن الفواحش، والعفة عن النظر والتطلع إلى الجارات ونساء الآخرين، والعفة عن الشره في الطعام والشراب.

ومن صور عفة الأخ عن الفواحش قول أعشى باهلة في أخيه المنتشر⁽³⁾:

لَا يُصْعَبُ الْأَمْرَ إِلَّا رَيْثَ يَرْكَبُهُ وَكُلُّ أَمْرٍ سَوَى الْفَحْشَاءِ يَأْتَمُرُ

وينفي كعب بن سعد الغنوي الفاحشة عن أخيه فيقول⁽⁴⁾:

أَخِي مَا أَخِي لَا فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وَلَا وَرَعٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ هَيُوبٌ

وتصف ليلي بنت سلمى أخاها بالـ عفة والبعد عن أذى الجار بالتطلع على

حرماته أو التعدي عليها فتقول⁽⁵⁾:

لَعَمْرِي مَا كَانَ ابْنُ سَلَمَةَ عَاجِزاً وَلَا فَاحِشاً يَخْشَى أَذَاهُ الْمُجَاوِرُ

(1) الخنساء، الديوان، ص242.

(2) الأصمعي، الأصمعيات، ص77.

(3) القرشي، جمهرة أشعار العرب: 712/2.

(4) الأصمعي، الأصمعيات، ص77.

(5) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص143.

ومن العفة تجنب تتبع النساء بالنظرات، وفي هذا المعنى تصف الخنساء أخاها صخرًا فتقول (1):

لَمْ تَرَهُ جَارَةً يَمْشِي بِسَاحَتِهَا لَرِيَّةٍ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ
وتجعل الخنساء صخرًا عفيفاً لا يستغل فرصة غياب الجار، فيسيء إلى زوجته، ولا يقترب من ساحتها، وقد أدركت هي ما هو عليه من عفة وحسن أخلاق. ويصف أعشى باهلة أخاه المنتشر بأنه عفيف النظرات مع جاراته فيقول (2):

لَا يَهْتِكُ السِّتْرَ عَنْ أَنْثَى يُطَالِعُهَا وَلَا يَشْدُ إِلَى جَارَتِهِ النَّظْرَا
وتشمل العفة أيضاً الأكل والشرب، حيث تصف زينب بنت ضرار أخاها قبيصة بعفة النفس عن الزاد إذا كان الزاد قليلاً والقوم كثير فتقول (3):

يَطْوِي إِذَا مَا الشُّحُّ أَبْهَمَ قَفْلَهُ بَطْنًا مِنَ الزَّادِ الْخَبِيثِ خَمِيصًا
ويصف أعشى باهلة أخاه بالعفة في الطعام والشراب فتكفيه قطعة من اللحم ويروي شربه من أصغر الأقداح فيقول (4):

تَكْفِيهِ حُرَّةٌ فَلْذِ إِنَّ أَلَمَ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيَرَوِي شُرْبُهُ الْغَمْرَ
ويصف متمم بن نويرة أخاه بالعفة في الشرب متجنباً الفحش من القول والفعل فيقول (5):

وَإِنْ تَلَقَّاهُ فِي الشُّرْبِ لَا تَلَقَّ فَاحِشًا عَلَى الْكَأْسِ ذَا قَاذُورَةٍ مُتْرَبَعَا
وتصف الخنساء أخاها صخرًا بالعفة في الشرب متجنباً الفحشاء فتقول (6):
وَإِنْ تَلَقَّاهُ فِي الشُّرْبِ لَا تَلَقَّ فَاحِشًا وَلَا نَاكِثًا عَقْدَ السَّرَائِرِ وَالصَّبْرِ

(1) الخنساء، الديوان، ص388.

(2) اليزيدي، الأمالي، ص16.

(3) الطائي، الحماسة: 519/1..

(4) الأصمعي، الأصمعيات، ص75.

(5) القالي، الأمالي، ص19.

(6) الخنساء، الديوان، ص142.

الوفاء:

يعد الوفاء من القيم الخلقية المفضلة عند العرب، ويقابلها الغدر الذي يعد مذموماً، وقد أحب العرب الأوفياء وأعلوا من شأنهم في شعرهم، لأن الوفاء في البيئة الجاهلية يحتاج إليه كل فرد ليعيش آمناً من الغدر، ومن أهم الصفات في الصديق الوفاء، حيث يكون سنداً لصديقه وعوناً له.

وتصف الخنساء أخاها صخراً بالوفاء إلى جانب أخلاقه السمحة إذا ظهر الغدر من الآخرين فتقول⁽¹⁾:

سَمَحَ خَلَائِقُهُ جَزَلَ مَوَاهِبُهُ وَافِيَ الذِّمَامَ إِذَا مَا مِعْشَرَ غَدَرُوا

وتظهر قيمة الوفاء جلية بين الجيران، وقد ترسخت في نفوس بعض العرب حتى بلغت منزلة تعلو على منزلة الأهل والعشيرة، ومن ذلك ما ورد من غضب زهير المازني من غدر أخيه قيس بجار لهما قتله، فلم يتحمل الغدر بالجار، وقتل أخاه قيساً، ولم تشفع توسلات قيس له وتذكيره برابطة الدم التي تربطهما، يظهر ذلك في قول زهير⁽²⁾:

يُنَاشِدُنِي قَيْسٌ قَرَابَةَ بَيْنِنَا وَسِيفِي بِكَفِيٍّ وَهُوَ مُنْجَرِدٌ يَسْعَى
غَدَرْتُ فَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ذِمَّةٌ تُجِيرُكَ مِنْ سِيفِي وَلَا رَحِمٌ تُرْعَى
سَأَرْحُضُ عَنِي مَا فَعَلْتَ بِضَرْبَةٍ عَقِيمِ الْبَدِيِّ لَا تُكْرُ وَلَا تُثْنَى

ومن هنا تظهر قيمة الوفاء في هذا المجتمع الذي يعد الغدر جريمة نكراء، ولهذا مجدوا صفة الوفاء في الأخ.

نبيل المحتد وشرف النسب:

إن من مفاخرات العرب اعتدادهم بنبيل محتدهم، وقد عرفوا في الجاهلية علم الأنساب، وكان عاراً على العربي أن يجهل بنسبه، وليس أحد من العرب لا يسمي آباءه أباً فأباً.

(1) الخنساء، الديوان، ص190.

(2) الطائي، الحماسة، ص 189 وفيه أن وفاء كان معاصراً لقس بن ساعدة الأيما دي، سأرحض: أي سأمحو عني هذا العار.

وفخر لبيد بن ربيعة بشرف نسب أخيه أربد فيقول⁽¹⁾:

يا أَرْبَدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جُدُّهُ
خَلَيْتَنِي أَمْشِي بِقَرْنٍ أَغْضَبَ
وتفخر جنوب أخت عمرو ذي الكلب بشرف نسب أخيها ، بل تعدّه أفضل
حسباً من قبائل هذيل فتقول⁽²⁾:

أَبْلَغُ هُذَيْلًا وَأَبْلَغُ مَنْ يُبْلَغُهَا
عَنِي حَدِيثًا وَبَعْضُ الْقَوْلِ تَكْذِيبُ
بأن ذا الكلب عمرو خيرهم حسباً ببطن شريان يعوي حوله الذيب
وتصف الخنساء أباها صخراً بأنه قد ورث المجد عن أجداده وأنه غير
مخلوط النسب، وتقول في ذلك⁽³⁾:

مُورِثَ الْمَجْدِ مَيْمُونُ نَقِيبَتِهِ
ضَخَمَ الدَّسِيعَةَ فِي الْغَرَاءِ مِغْوَارِ
فِرْعَ لِفِرْعِ كَرِيمٍ غَيْرِ مُؤْتَشَبِ
جَلَدِ الْمَرِيرَةِ عِنْدَ الْجَمْعِ فِخَارِ
ومما سبق من خصال أضفاها الشاعر على أخيه في رثائه نجد أن الراثي حاول
أن يجمع له من أفضل الصفات التي تمجد صورة الأخ وتجعل منه قدوة في الأخلاق
والخصال الحميدة.

5.3 الطقوس والأساطير في رثاء الأخ:

مما لا شك فيه الشعر الجاهلي ورد فيه كثير من الأساطير ، فقد أشار
الشعر إلى عادات فعلها العرب وأقوال كانت من الأساطير ، كالدعاء بالسقيا والوقوف
على القبور والذبح عندها للميت، وذكر حيوانات أسطورية مثل الهامة والصدى،
وتقديس حيوانات مثل الثور والجمال، وذكر قصص أسطورية عنها، وغير ذلك من
الأساطير التي وردت في شعرهم⁽⁴⁾.

(1) ابن ربيعة، الديوان، ص154، الأغضب: المكسور أحد قرنيه.

(2) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص198.

(3) الخنساء، الديوان، ص389، المريرة: إبرام الرأي، والجلد: الحازم، والفخار: الكثير الفخر.

(4) الشوري، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص66.

والأمر لا يحتاج إلى عناء لنقول إنه كانت هناك حياة عند العرب فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (1).

وقوله أيضاً: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (2) وقد جاء في رثاء الأخ العديد من الأساطير، التي يمكن تناول أهمها كما يلي:

(1) الدعاء بالسقيا:

الدعاء بالسقيا هو دعاء بالخير والبركة والغيث لقبر المرثي ، وتعني السقيا المطر الغزير الذي يروي الأرض اليابسة فينبت الزرع وتظهر الحياة على وجه الأرض.

"قالجاهليون استمطروا السماء بالماء، وأرادوا من ذلك محاربة الفناء وحب البقاء وتجدد الحياة، إذ كان الماء عند الجاهليين غيثاً لهم" (3).

"وعلى تفاوت الجاهليين في الجزئيات الدقيقة للمعاني السابقة حول السقيا فإنهم اتفقوا جميعاً في الهدف من الدعوة بها. فقد أرادوا لقبور موتاهم أن تبقى غضة ندية يكسوها العشب دلالة على الحياة الدائمة - وأن تظل محمية من الدروس، طرية لا يتسلط عليها ما يزيل جدتها ونضارتها" (4).

"وقد يكون الدعاء بالسقيا لقبر المرثي إشارة إلى معنى الكرم في ذات المرثي الذي كان يغيث المحتاجين في حياته بعطاياه وكرمه" (5).

(1) سورة الأنفال، آية 31.

(2) سورة الفرقان، آية 5.

(3) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص118، 119.

(4) المرجع نفسه، ص119.

(5) الخطيب، بشرى محمد علي، (1971)، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، جامعة بغداد، العراق، ص196.

ومن أمثلة الدعاء بالسقيا لقبر الأخ قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه داعياً
لقبره بالسقيا⁽¹⁾:

سَقَى اللهُ أَرْضاً حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ ذَهَابُ الْغَوَادِي الْمُدْجِنَاتِ فَأَمْرَعَا
وَالْفَارَعَةَ بِنَشْدَادٍ فِي رِثَائِهَا أَخِيهَا تَتَرَقَّبُ الْبَرْقُ فِي السَّمَاءِ الَّذِي يَبْشُرُ
بِنُزُولِ الْمَطَرِ، وَتَتَرَقَّبُ الرِّيحُ الَّتِي تَسُوقُ السَّحَابَ لِنُزُولِ الْمَطَرِ فَتَسْقِي بِهَا قَبْرَ
أَخِيهَا، حَكِيمُ الْقَوْمِ وَقَائِدُهُمْ، فَتَقُولُ⁽²⁾:

يَا مَنْ رَأَى بَارِقاً قَدْ بَتَّ أَرْمَقَهُ يَسْرِي عَلَى الْحُرَّةِ السَّودَاءِ فَالْوَادِي
أَلْقَى مِرَاسِي غَيْثَ مُسْبِلِ غَدَقٍ دَانَ يَسْحَ سَيُوباً ذَاتَ إِحَادٍ
قَوَالٍ مُحْكَمَةٍ نَقَاضٍ مُبْرَمَةٍ فَتَاحِ مُبْهَمَةِ حَبَاسٍ أُرَادٍ
وَيَدْعُو الْمَهْلَهْلُ بْنُ رَبِيعَةَ بِالسَّقِيَا لِقَبْرِ أَخِيهِ كَلِيبٍ، فَقَدْ كَانَ أَخُوهُ يَشْمَلُ بِكَرْمِهِ
جَمِيعَ الْمُحْتَاجِينَ فَيَقُولُ⁽³⁾:

سَقَاكَ الْغَيْثُ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثًا وَيُسْرًا حِينَ يُلْتَمَسُ الْيَسَارُ
وَتَدْعُو الْخَنَسَاءُ لِقَبْرِ أَخَوَيْهَا صَخْرٍ وَمَعَاوِيَةَ بِالسَّقِيَا، وَذَلِكَ إِذْ تَقُولُ⁽⁴⁾:
سَقَى اللهُ قَبْرَكَ صَوْبَ الْغَمَامِ فَرَوَى الْقَلِيبَ وَرَوَى الْجُنَيْنَا
وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى تَدْعُو لِقَبْرِ أَخِيهَا صَخْرٍ بِالسَّقِيَا فَتَقُولُ⁽⁵⁾:
سَقِيًّا لِقَبْرِكَ مِنْ قَبْرِ وَلَا بَرِحَتْ جُودُ الرِّوَاعِدِ تَسْقِيهِ وَتَحْتَلِبُ
فَهِيَ تَطْلُبُ السَّقِيَا لِقَبْرِهِ لِأَنَّهُ كَانَ كَرِيمًا جَوَادًا بِمَا لَدَيْهِ فَهُوَ يَسْتَحِقُّ السَّقِيَا.
وَتَدْعُو بِالسَّقِيَا لِلْأَرْضِ الَّتِي ضَمَّتْ قَبْرَ أَخِيهَا، تَقُولُ⁽⁶⁾:
أَسْقَى بِلَادًا ضُمِّنَتْ قَبْرَهُ صَوْبَ مَرَابِيعِ الْغُيُوثِ السَّوَارِ

(1) الضبي، المفضليات: 268.

(2) مارديني، شواعر الجاهلية: 207.

(3) المهلهل، الديوان: 29.

(4) الخنساء، الديوان، ص 353.

(5) الشوري، مصطفى عبدالشافى، (1996)، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، بيروت، لبنان، ص 159.

(6) الخنساء، الديوان، ص 39.

وتدعو الخنساء بالسقيا في قصيدة أخرى فتقول⁽¹⁾:

سَقَى إِلَهُ ضَرِيحًا جَنًّا أَعْظَمُهُ وَرُوحُهُ بَغْزِيرِ الْمُزْنِ هَطَّالٌ

ولقد ظل الدعاء بالسقيا إلى ما بعد ظهور الإسلام، ولكن الشعراء تخلصوا من إحياءات كثيرة تتنافى مع تعاليم الدين الجديد، مثل: الدعاء بالخلود والتبرك بالقبر، والدعاء عنده والاستشفاع به، وهذا كله محرم في ديننا الإسلامي.

الوقوف على القبور وعقر الناقة:

كان الشاعر يقف على قبر أخيه ويكيه بكاء متواصلًا، وربما عقر الإبل أو أراق الخمر على قبره . واختلف في سبب عقرهم الإبل على القبور، "وقال ابن السيد فيما كتبه على كامل المبرد : اختلف في سبب عقرهم الإبل على القبور فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للأضياف واحتجوا بقول الشاعر:

وَأَنْصَحَ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذَبَائِحَ

وقد قال قوائما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام . وقيل إنما كانوا يفعلونه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت وكأنهم يثأرون لهم فيها. وقيل إن الإبل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بذلك أنها قد هانت عليهم لعظم المصيبة. وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث لا عقر في الإسلام⁽²⁾.

"وإذا تمعن المرء في المعاني المستترة وراء عقر الإبل وشرب الخمر على القبور أيقن ما تستكنه من ود واحترام وإكرام للميت، وطالما كان يعقر الإبل والخمر لأضيافه وأصحابه في حياته . ويؤكد هذا أن الأعشى كان مشهوراً بشرب الخمر، فلما مات كان ندماءؤه يذهبون إلى قبره فيشربون فوقه، وتدور الكأس فإذا حان استحقاق الأعشى منها صبوا له الخمرة، ولهذا كان قبره ندياً رطباً"⁽³⁾.

(1) الخنساء، الديوان، ص69.

(2) الألوسي، بلوغ الإرب، 310/2-311.

(3) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص118.

الدعاء للميت بعدم البعد:

وقد صحب الوقوف على القبور الدعاء للميت بقولهم: (لا تبعد).
وقد جرت عادة العرب باستعمال هذه اللفظة في الدعاء للميت ولهم في ذلك غرضان: أحدهما لأنهم يريدون به استعظام موت الرجل الجليل وكأنهم لا يصدقون بموته..

والغرض الثاني: أنهم يريدون الدعاء له بأن يبقى ذكره ولا يذهب لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته⁽¹⁾.

ومن أمثلة الدعاء بعدم البعد للأخ قول أم عمرو أخت ربيعة بن مكـ دم في رثاء أخيها ربيعة⁽²⁾:

فَاذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ لاقى الذي كلُّ حيٍّ مثَّلها لاقى
وتدعو الخنساء لأخيها صخر بعدم البعد لقبره وأن تجود عليه السحب بالمطر فتقول⁽³⁾:

فَلَا يَبْعُدَنَّ قَبْرُ تَضَمَّنَ شَخْصَهُ وَجَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ وَاكِفَةِ الْقَطْرِ
وتدعو في موضع آخر لأخيها صخر بعدم البعد، حيث كان أخوها لا يقبل الظلم ولا يترك ثأره فتقول⁽⁴⁾:

فَاذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ دَرَّاكَ ضَيْمٍ وَطَلَّابٍ بِأَوْتَارٍ
وفي موضع آخر تدعو الخنساء لأخيها بعدم البعد، وتؤكد أن الموت يصيب كل الخلق إلا الله الواحد الباقي فتقول⁽⁵⁾:

لَا تُبْعَدَنَّ فَإِنَّ الْمَوْتَ مُخْتَرِمٌ كُلَّ الْخَلَائِقِ غَيْرَ الْوَاحِدِ الْبَاقِي

(1) الألويسي، بلوغ الإرب، ج3، ص14.

(2) مارديني، شواعر الجاهلية، ص221.

(3) الخنساء، الديوان، ص142.

(4) المصدر نفسه، ص292.

(5) المصدر نفسه، ص345.

ويدعو غُوَيَّةُ بن سلمى بن ربيعة الضبي بعدم البعد لأخيه أبي فيقول⁽¹⁾:

أَبِي لَا تَبْعِدْ وَلَيْسَ بِخَالِدٍ حَيٌّ وَمَنْ تُصِيبُ الْمَنُونُ بَعِيدٌ

ويدعو لبيد بن ربيعة لأخيه أربد بعدم البعد فيقول⁽²⁾:

فَلَا تَبْعِدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدٌ عَلَيْكَ فَذَانٌ لِلطَّلُوعِ وَطَالِعُ

وتدعو الفارعة بنت شداد لأخيها مسعود بعدم البعد فتقول⁽³⁾:

أَبَا زُرَّارَةَ لَا تَبْعِدْ فَكُلُّ فَتَى يَوْمًا رَهِينُ صُفْيَحَاتٍ وَأَعْوَادِ

وتدعو فاطمة بنت الأحجم لإخوتها بعدم البعد فتقول⁽⁴⁾:

إِخْوَتِي لَا تَبْعُدُوا أَبَدًا وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعْدُوا

وتدعو بنت ضرار الضبية لأخيها قبيصة بعدم البعد قائلة⁽⁵⁾:

لَا تَبْعِدَنَّ وَكُلُّ شَيْءٍ ذَاهِبٌ زَيْنَ الْمَجَالِسِ وَالنَّدَى قَبِيصًا

ويدعو أعشى باهلة لأخيه المنتشر بعدم البعد فيقول⁽⁶⁾:

إِمَّا سَلَكَتَ سَبِيلًا أَنْتَ سَالِكُهُ فَاذْهَبْ فَلَا يَبْعِدَنَّكَ اللَّهُ مُنْتَشِرٌ

ومما سبق يبدو جلياً الوقوف على القبور لبكاء الأخ الفقيد مصداً حوباً بعقر الإبل وسكب الخمر على قبره مع الدعاء بعدم البعد . وقد ظل الوقوف على القبور مستمراً من العصر الجاهلي إلى عصرنا هذا ، حيث ما زال هناك من يقف على القبور في بعض البلاد العربية، وإن لم يكن هناك عقر للإبل، ولكن تظهر في صور أخرى منها الذهاب إلى القبر وأخذ طعام أو شراب كان يشتبهه الميت بزعم أنه تشارك روحه في الأكل والشرب ، وهذا موجود في مصر في (التراب) على حسب تسميتهم.

(1) المرزباني، معجم الشعراء، ص175.

(2) ابن ربيعة، الديوان، ص171.

(3) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص147.

(4) الشوري، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص60.

(5) الطائي، ديوان الحماسة: 1053/2.

(6) اليزيدي، الأمالي، ص17.

الهامة والصدى:

من الأساطير التي وردت في الشعر الجاهلي عامة وشعر رثاء الأخ خاصة، الهامة والصدى.

فمن حرص العرب في الجاهلية على الثأر تخيلوا ما يسمونه الصدى والهامة، فالقتيل عندهم إذا قُتل ولم يُدرك بثأره فإنه يخرج من رأسه طائر كالبومة وهي الهامة وذكرها هو الصدى وهذه الهامة تصيح عند قبره اسقوني سلقوني، فإن قُتل قاتله كف عن ذلك الطائر وسكن. قال مفلس الفقعسي⁽¹⁾:

وَإِنْ أَخَاكَمَ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهُ بِسَفْحِ (قُبَا) تَسْفِي عَلَيْهِ الْأَعَاصِيرُ

لَهُ هَامَةٌ إِذَا اللَّيْلُ جَنَهَا بَنِي عَامِرٍ هَلْ لِلْهَلَالِيِّ ثَائِرُ

ويجمع لبيد بن ربيعة بين الصدى والهامة في رثائه لأخيه أربد قائلاً⁽²⁾:

وَلَيْسَ النَّاسُ بَعْدَكَ فِي نَقِيرٍ وَلَا هُمْ غَيْرُ أَصْدَاءٍ وَهَامٍ

فالبشر في نظره ميتون جميعاً وه ليهوا إلا هامة تصيح كلما رأت إنساناً ، سواء أكانت تعرفه أم تتكره.

وهكذا نجد أن أسطورة الهامة والصدى في رثاء الأخ قد ارتبطت بالدعوة إلى الثأر من قاتل الأخ ويأتي ذكر الهامة والصدى في رثاء الأخ خ للحث على الثأر له وعدم التخاذل وقبول الدية.

أسطورة القمر والحيوان الطوطمي:

كان القمر أحد آلهة العرب، وعندما يشبه المرثي بالقمر نلمح تلك الأسطورة البعيدة التي تقرر عبادة الناس للقمر، وقد جاء في شعر رثاء الأخ نمطية التشبيه بالقمر، ومن ذلك قول الخنساء⁽³⁾:

يَا بَذْرُ قَدْ كُنْتَ بَذْرًا يُسْتَضَاءُ بِهِ فَقَدْ مَضَى يَوْمَ مَتِّ الْمَجْدِ وَالْجُودِ

وتقول أيضاً مصورةً مكانته من احترام الناس له مثل تقديسهم للهِلال⁽⁴⁾:

(1) الألوسي، بلوغ الأرب، ج2، ص312.

(2) ابن ربيعة، الديوان، ص209.

(3) الخنساء، الديوان، ص256.

(4) المصدر نفسه، ص347.

مَلِكٌ مَاجِدٌ يَقُومُ لَهُ النَّا
سُ جَمِيعًا قِيَامَهُمْ لِلْهَلالِ
وَيُشَبِّهَ لِبَيْدِ اخاه أَرَبْدَ بِالْبَدْرِ فيقول (1):

أَلْفَيْتَ أَرَبْدَ يُسْتَضَاءُ بِوَجْهِهِ
كَالْبَدْرِ غَيْرِ مُقْتَرٍ مُسْتَأْثَرٍ
وتقول صفيّة الباهلية في رثاء أخيها تشبّهه بالقمر (2):
كُنَّا كَأَنجُمٍ لَيْلٍ بَيْنَنَا قَمَرُ
يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى مِنْ بَيْنَنَا الْقَمَرُ
ويشبهه بشر أخاه سميراً بالبدْر الساطع فيقول (3):

لِلَّهِ دَرُّ الْقُبُورِ مَا حُشِيَتْ
أُرُوعُ شَبْهًا لِلْبَدْرِ إِذْ سَطَعَا
وتمتد أسطورة عبادة القمر امتدادات أخرى ترتبط بالثور الوحشي : "ولقد ربطوا بين
الثور الوحشي والقمر جاعلين منه رمزاً على الإله "ود" أو "سين" أو "شهر" .. وقد
صار رمزاً ممثلاً للإله القمر إذ وجدت في معابد القمر - جنوبي الجزيرة - صورة
للثور قدمها عابده قرابين للإله أو نذوراً كانت عليهم له، ولقد عرف القمر باسم
"ثور" (4).

"ومن أساطير بابل القديمة أسطورة تعرف بملحمة جلجامش يقوم فيها الثور
بدور مهم وخطير وعند الآشوريين نجد الثيران المجنحة تقف على أبواب قصورهم
حارسة راعية، ذلك لأنهم كانوا يعبدون الإله الثور ويلتمسون عنده النصر
والحماية" (5).

ويبدو أن شعراء الرثاء جعلوا الحيوان مثلاً للعبارة والتعزي في الأحزان...
ومما سبق تظهر الأسطورة في التشبيه ٤ بالقمر والحيوان الطوطمي في شعر
رثاء الأخ.

(1) ابن ربيعة، الديوان، ص166.

(2) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص196.

(3) ابن أبي خازم، الديوان، ص94.

(4) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص73.

(5) الشوري، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص73.

أسطورة الصَّفر:

ومن الأساطير التي وردت في الشعر الجاهلي أسطورة الصفر، وقد ذكرها الشعراء في رثاء الأخ: "زعموا أن في البطن حية إذا جاع الإنسان عضت على شرسوفه وكبده، وقيل هي الجوع بعينه ليس أنها تعض بعد حصول الجوع"⁽¹⁾.

ومن ذلك قول أعشى باهلة يمتدح أخاه المنتشر بأن همته ليست في المطعم والمشرب، فلا يرقبها نضج ما في القدر، ولا صفر في جوفه فيعض⁽²⁾:

لا يَتَأَسَى لِمَا فِي الْقَدْرِ يَرْقُبُهُ وَلَا يَعْضُ عَلَى شَرُوفِهِ الصَّفَرُ

أسطورة بنات نعش:

من الأساطير التي وردت في شعر رثاء الأخ الجاهلي أسطورة بنات نعش: "وبنات نعش من المجموعات النجمية وهي قسمان: بنات نعش الكبرى أو مجموعة الدب الأكبر، وبنات نعش الصغرى أو مجموعة الدب الأصغر، والثانية أقل ظهوراً، واحدها يسمى النجم القطبي ويقال له الجدي، واثنان منهما يكونان الفرقدين"⁽³⁾. والفرقدان نجمان في السماء لا يغربان ويطوفان بالجدي. وقد ورد ذكر الفرقدين وبنات نعش في رثاء الأخ مثلاً للخلود. وتلك النجوم المجتمعة في السماء تؤكد فناء ما عداها من الأحياء على الأرض، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه⁽⁴⁾:

وإِلَّا الْفَرَقْدَيْنِ وَآلَ نَعَشٍ خَوَالِدٍ مَا تَحَدَّثُ بَانْهَدَامٍ

ويؤكد المعنى نفسه عمرو بن معد يكرب في رثاء أخيه قائلاً⁽⁵⁾:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ

وإن كان الاعتقاد الأسطوري بخلود النجوم فهذا باطل لأن كل شيء فانٍ ولا باق ولا خالد إلا الله عز وجل.

(1) الألويسي، بلوغ الإرب: 313/2.

(2) القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: 718/2.

(3) الشورى، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري: 72.

(4) ابن ربيعة، الديوان، ص208.

(5) بن معد يكرب، الديوان، ص167.

وتظهر أسطورة الجدي وبنات نعش في قول المهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه
كليب⁽¹⁾:

كَأَنَّ الْجَدْيَ جَدِيْ بَنَاتِ نَعَشٍ يَكْبُ عَلَى الْيَدَيْنِ بِمُسْتَدِيرٍ
تقول الأسطورة إن الجدي قتل نعشاً أحد نجوم بنات نعش، وإن بنا ته يردن
أبداً اللحاق بالجدي للاقتصاص منه.
الناقة وعلاقتها بالراشي:

لقد حظيت الناقة بالتقديس في الشعر الجاهل^ي، والناقة لها تاريخ قديم عند
العرب: فناقة صالح ولدت من بطن صخرة ارتجفت وظهر في جانبها نتوء كبير،
ظل يدور، ثم تمخضت الصخرة كما تتمخض المرأة، فوضعت الـ ناقة، ويصفها
الرواة بالعظمة، فإذا نحن تأملنا وصفهم تبادر إلى ذهـ ننا ناقة البسوس في حجم
ضرعها وطول قوائمها، حتى كأن ناقة هذا اليوم من أيام العرب هي بعينها ناقة
صالح.

وقد سمو بالناقة والجمال كثيراً من النجوم "كالفتيق" وهو الجمل العظيم،
وقالوا عن "سهيل" إذعوت عین الجمل عليه مات من ساعته، ... وترتب على ذلك
أن أحاطوا الناقة والجمال بالتقديس ونظروا بعين التعظيم إلى أغلب ما يتعلق بهما،
فبحروا " البحيرة" وسيبوا "السائبة" ووصلوا "الوصيلة" وحموا "الحامي" وهي جميعاً
مخلوقات لها تعلق بتقديس الناقة ... وقد رأوا أن الإبل تولع بأكل عظامهم إذا ماتوا،
ولا يوجد حيوان يأكل عظام الموتى من البشر، فكانوا يثأرون لأنفسهم منه في
حياتهم، فطروا في نحرها وعقرها ... لذلك جعلوا من الناقة ما يشبه السفينة في
الملاحم الكونية القديمة تحملهم إلى العالم الثاني، وهو ظاهر مفهوم البلية التي كانوا
يربطونها عند قبر الميت ساعة دفنه . والبلية لا تكون إلا ناقة تعقل إلى جانب القبر
حتى يدركها الموت، فإذا نهض الميت من قبره وجدها قريبة منه، وامتطأها عابراً
إلى العالم الآخر⁽²⁾.

(1) المهلهل، الديوان، ص37.

(2) أنوري، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص 76، 77، 78، وانظر أبو سويلم، أن و،
(1403هـ)، الإبل في الشعر الجاهلي، ط1، ج1، الرياض، السعودية: 232/1.

وفي شعر رثاء الأخ يمكن أن نجد أهمية الناقة، ومن ذلك تشبيهه الخنساء حزنها على أهلها بحزن الناقة الأم المفجوعة بفقد ولدها ، وقد أخذت تتردد في المكان بين إقبال وإدبار، والحزن قد برى لحما حتى عراها الهزال، وكذلك الخنساء، فقد عظمت مصيبتها جراء فقدتها أخاها صخراً، فتقول (1):

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ تُطِيفُ بِهِ لَهَا حَنِينَانِ إصْغَارٌ وَإِكْبَارٌ
تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
لَا تَسْمَتُ الدَّهْرَ فِي أَرْضٍ وَإِنْ رُيِعَتْ فَإِنَّمَا هِيَ تَحْنَانٌ وَتَسْجَارٌ
يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِلدَّهْرِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارٌ

ويشبهه متمم بن نويرة حزنه على فقد أخيه بحزن النوق الم سَنَاتٍ وَهُنَّ يَبْكِينَ بصوت واحد لمرأى البوبين مصروعاً ومجروراً، مما يذكرهن بأطفالهن فيصرخن ملتاعات، ويثير مرآهن حزن الإنسان، وقد تهدأ إحداهن لحظة ولكن تبكي واحدة منهن فتتطلق الأخريات بالبكاء، ويؤكد متمم أن كل هذا الألم والحزن الذي يحس به جراء فقدته أخاه، فيقول في ذلك (2):

وَمَا وَجَدَ أَطَارَ ثَلَاثَ رَوَائِمِ أَصْبَنَ مَجْرَأً مِنْ حُورٍ وَمَصْرَعَا
يُذَكِّرُنَ ذَا الْبَثِّ الْحَزِينِ بَيْتَهُ إِذَا حَنَّتْ الْأُولَى سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
إِذْ شَارِفٌ مِنْهُنَّ قَامَتْ فَرَجَعَتْ حَنِينًا فَأَبْكَى شَجَوْهَا الْبَرْكَ أَجْمَعَا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكٍ مُنَادٍ بَصِيرٌ بِالْفِرَاقِ فَأَسْمَعَا

ومما سبق يتضح أن الناقة كانت عند صراً مهماً في تصوير الشعراء لآلامهم وأحزانهم، إذا ما فقد الشاعر منهم أخاه، فيدل ذلك على أهمية الناقة في قصيدة الرثاء.

(1) الخنساء، الديوان، ص 381، 382، 384، 385، العجول: التي يموت ولدها وهو صغير،

ترتع: ترعى.

(2) الضبي، المفضليات، ص 270، الأطار: جمع ظئر: وهي العاطفة على غير ولدها المرضعة

له، والروائيم من المحبات اللاتي يعطفن على الرضيع؛ الشارف: المسنة من الإبل؛ البرك: الألف من الإبل.

الفصل الرابع الثأر للأخ

1.4 الثأر والمجتمع الجاهلي:

يعد الثأر من أبرز العادات والمظاهر الاجتماعية في العصر الجاهلي، وقد امتلأ الشعر الجاهلي بالحديث عن الثأر المقترن بالحروب، والثأر يعني الانتقام بالقتل من القاتل وقد يمتد القتل إلى عشيرته : "ولعل طبيعة الحياة القبلية هي التي ساعدت على تلك النظرة إلى الثأر؛ ذلك أن حياة تزخر بالحروب والاقتتال، وتقوم على الغزو وشن الغارات، لا بد لها من أن تمس لأل النفوس بالضغائن والأحقاد، وتجعلها تتطوي على الرغبة في الانتقام لأقربائها ورهطها وأفراد قبيلتها، وهذا ما هياً لاستمرار المواقع والمعارك، وجعلها في سلسلة طويلة لا تكاد تنتهي، فكل موقعة تخلف قتلى، وكل إغارة تترك خلفها مقاتلين صرعى، وبذلك تشحن القلوب حقداً وبغضاً، وتتأهب النفوس ليوم الثأر، فإذا حلقة أخرى من الحروب قد تكونت، وإذا يوم آخر من أيامهم قد استعر ضرامه، واشتد أواره، ولا ريب تبعاً لذلك، في أن للثأر إسهاماً كبيراً في إذكاء نار الحروب وإيقائها متأججة، وربما أعان على ذلك ما قضت به الأعراف من أن لأهل القتل يلحق القود من القاتل، وأن الدم الذي هريق لا بد له من مقابل، وغالباً ما يكون دماً مهراقاً أيضاً"⁽¹⁾.

وفي مثل هذا المجتمع لم تكن هناك قواعد أو قوانين تحكم الثأر، فالنار التي تستعر في قلوب أهل القتل لا يطفئها إلا الأخذ بالثأر من القاتل دون مراعاة قواعد أو قوانين في الأخذ بالثأر وقد يبالغ أهل القتل في الانتقام فيقتلون زوجته وأبناءه وعشيرته "الثأر نظام بدوي حيث لا حكومة ولا محاكم ولا سلطة تحول الموتور والواتر، وقد كان هناك شيوخ القبائل ولكنهم لم يملكو القوة التنفيذية التي يقتصون

(1) يتون، الإنسان في الشعر الجاهلي، ص 221-222، وانظر: الشمايلة، غدير، (1996)،

الثأر في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، 28-

بها من الجاني؛ لأنَّ القبيلة لم يكن لها قانون جنائي فليس أمام الموتور إلا أن ينتقم من واثره.

وكان الثأر واجباً على أقرب الناس للقتيل، وكانت عشيرة الجاني لا تخذله أو تسلمه إلى الموتور، بل كانت تحميه وتؤازره، فإذا ما قُتل جدت عشيرته لتثأر له أيضاً، وبذلك تجددت الحروب والمنازعات وسفك الدماء، وتطاولت⁽¹⁾.

"صحيح أن من واجب الزعماء في القبيلة أن يعملوا على إيجاد تسوية بين المتخاصمين من دون أن يملكوا حق فرضها عليهم، ولكن العشائر كثيراً ما كانت لا تنتهي إلى الأخذ بهذه التسويات إلاَّ بعد أن تكون قد تفانت ودقت بينها عطر منشم كما عبر زهير، أما إذا أسلم القاتل طوعاً لا كرهاً إلى الفريق الآخر لينتقم منه فعندئذٍ لا يبقى مجال للثأر، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة، فهي تفضل أن تقتل الجاني على أن تسلمه طوعاً ويلحق بها العار..."⁽²⁾.

وقد عبر دريد بن الصمة الذي فقد إخوته في هذه الحروب عن هذه الحياة الجاهلية التي كثر فيها القتال والأخذ بالثأر، فإما أن يثأروا لأنفسهم أو يثأر منهم، فقال⁽³⁾:

أَبُوا غَيْرَهُ وَالْقَدْرُ يَجْرِي إِلَى الْقَدْرِ	أَبَى الْقَتْلُ إِلَّا آلَ صِمَّةَ إِنَّهُمْ
لَدَى وَاتِرٍ يَسْمَى بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ	فَأَمَّا تَرَيْنَا لَا تَزَالُ دِمَاؤُنَا
وَنُلْحِمُهُ أَحْيَانًا وَلَيْسَ بِذِي نُكْرٍ	فَإِنَّا لِلْحُمِّ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ
بَنَّا إِنْ أُصِيبْنَا أَوْ نُغِيرُ عَلَى وَتَرٍ	أَرْغَعْنَا عَلَيْنَا وَاتَرِينَ فِي شَتَّى
فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَحْنٌ عَلَى شَطْرِ	قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا

"وكان الجاهليون يرون أن القتل لا يهدأ في قبره أو يرتاح حتى يدرك ثأره؛ وهذا لم يمنع رثاءه، ومن هنا اتصلت بعض الأعراف الاجتماعية بطلب الثأر كجز نواصي الأسرى وهلب ذنب الخيل؛ كما ارتبطت في جملة من المعتقدات كالهامة والصدى.

(1) الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص211.

(2) المرجع نفسه، ص211-212.

(3) الجشمي، الديوان: 95، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين: 331/2.

أما ما يتعلق بعادات الثأر فقد آمن العرب بأنهم إن لم يأخذوا ثأرهم استهين بهم، وطمع في نساءهم، وعليهم أن يهيئوا رقابهم للذبح كما تهيأ النعاج له⁽¹⁾.
وقد عبر المهلهل بن ربيعة يوم مقتل أخيه مخاطباً قومه بني تغلب عن استهانة القبائل بهم، وتهياة أنفسهم للذبح إ ذا لم يأخذوا بثأر أخيه كليب، فقال في ذلك⁽²⁾:

إِنْ نَحْنُ لَمْ نَثَارْ بِهِ فَاشْحَذُوا شِفَارَكُمْ مِنْ لِحْزِ الْخُلُوقِ
ذَبْحاً كَذْبَحِ الشَّاةِ لَا تَتَّقِي ذَابِحَهَا إِلَّا بِشَخْبِ الْعُرُوقِ

ولقد كان الموتور يألو على نفسه أن يفارق اللهو ويمتدع عن الملذات حتى يأخذ بثأره: "وبلغ من كلفهم بالثأر أنهم كانوا يتجافون النساء والخمر والطيب، لأنها ضرب من التمتع والبهجة لا يليق بحزين موتور، أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجد في طلب الثأر"⁽³⁾.

وقد حرموا على أنفسهم النساء وشرب الخمر حتى يثأروا للمقتول، ومما جاء في ذلك قول المهلهل⁽⁴⁾:

خُذِ الْعَهْدَ الْأَكِيدَ عَلَيَّ عُمْرِي بَتْرِكِي مَا حَوَتْ الدِّيَارُ
وَهَجْرِي الْغَانِيَاتِ وَشُرْبِ كَأْسٍ وَلُبْسِي جَبَّةَ لَا تُسْتَعَارُ
وَأَسْتُ بِخَالِعِ دِرْعِي وَسَيْفِي إِلَّا أَنْ يَخْلَعَ اللَّيْلُ النَّهَارُ
وَالْأَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فَلَا يَبْقَى لَهَا أَبَدًا أَثَارُ

ولما بلغ تأبط شراً قتل أخيه حرم على نفسه الملذات من الخمر حتى يثأر لأخيه، فقال⁽⁵⁾:

وَحَرَمْتُ السَّبَاءَ وَإِنْ أُحِلَّتْ بِشُورٍ أَوْ بِمَزْجٍ أَوْ لِصَابِ

(1) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص58.

(2) المهلهل، الديوان، ص57.

(3) الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ص206.

(4) المهلهل، الديوان، ص32.

(5) ابن سفيان، ثابت بن جابر (ت: 530)، (1984) ديوان تأبط شراً وأخباره، ط 1، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار العرب الإسلامي، القاهرة، مصر: 309.

ويحرم دريد بن الصمة الخمر على نفسه حتى يثأر لأخيه من قاتله، فيقول⁽¹⁾:
شَلَّيْمِيْنِي وَلَمْ أَشْرَبْ مُعْتَقَةً إِنَّ أَخْطَأَ الْمَوْتَ أَسْمَاءُ بِنُ زَنْبَاعٍ
وقد يُحرِّم طالب الوتر على نفسه فضلاً عن النساء وشرب الخمر، تطيبب
الشعر وترجيله، مبقياً شعره أشعث مغبراً حتى يينال الثأر ويشفي غليله، ومن ذلك
قول العباس بن مرداس في رثاء أخيه⁽²⁾:

وَأُنْبِئْتُ أَنَّ قَدْ أَحْرَمَ الْغَسْلَ عَامِراً وَأَنْتِي لِرَاضٍ عَنْكَ مَا لَمْ تَرْجَلِ
فإذا تحقق لطالب الوتر ثأره أضحت تلك الملذات حلالاً يمكن أن يعود إليها
بعد أن هدأت عاطفة الانتقام، ومن ذلك قول تأبط شراً⁽³⁾:

فَأَذْرَكْنَا الثَّأَرَ مِنْهُمْ وَلَمَّا يَنْجُ مِنَ الْحَيَانِ إِلَّا الْأَقْلُ
حَلَّتِ الْخَمْرُ وَكَانَتْ حَرَاماً وَبَلَى مَا أَلَمَّتْ تَحِلُّ
ومن عادات الجاهليين في الثأر أنهم "كانوا يؤخرون البكاء على القتل حتى
يثأروا له، فإذا ما ثأروا بكت النساء قتيلهن وندبته"⁽⁴⁾.

ومن يطالع الشعر الجاهلي يجد أن للنساء دوراً كبيراً في الحث على الأخذ
بالثأر وعدم التخاذل ورفض الدية، وكانت المرأة بشعرها تلهب نفوس إخوتها
وقومها للانتقام عن طريق النواح والصراخ وشق الجيوب والطم وخمش الـ وجوه
بالأظافر، ووضع التراب والطين فوق الرؤوس، والاستمرار في النواح والبكاء حتى
يدرك الثأر.

"وكان للثأر بعض النفع لأنه يكبح من جماح بعض الحمقى الذين تسيرهم
شهوات القتل والقسوة، ولولا ذلك لانغمسوا في إجابة غرائزهم وخروجهم على
القانون دون خوف أو رهبة من عقاب"⁽⁵⁾.

(1) الجشمي، الديوان: 87.

(2) السلمي، الديوان، ص230.

(3) ابن سفيان، الديوان: 245.

(4) الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص213.

(5) المرجع نفسه، ص212.

ولكن كان للثأر مساوئ كثيرة منها : قتل كثير من الأنفس الذين يذهبون ضحايا لتلك الحروب الطاحنة التي قد تستمر سنيناً، كحرب البسوس التي كانت أطول حرب في الجاهلية، وخلفت الكثير من الأرامل والعديد من الأيتام، كما أن طالب الوتر قد يرى أن القاتل ليس كفلاً ولا جديراً بأن يؤخذ الثأر منه، فينصرف بالانتقام إلى من هو أفضل عزة وشرفاً منه في القبيلة فيقتله، ولقد حرم الإسلام ذلك بأن جعل القصاص من القاتل نفسه؛ لأن في قتل غيره ظمناً شديداً، ويجعل القتل بدور كالرحى.

ونظراً لسلامة المبدأ الذي قام عليه الثأر وهو تحقيق الضبط والتوازن بين الجماعات فقد جاء مبدأ القصاص في الشريعة الإسلامية مرتبطاً به، إذ أقر أخذ القاتل بجريمته وتوقيع عقوبة الموت عليه إذا توافرت شروط الجرم، وذلك حماية للمجتمع ودرءاً لعوامل الشر عنه، وفي هذا المعنى نزلت الآية الكريمة : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَّةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁾، والواقع أن القصاص صورة متحضرة لنظام الثأر، أو أن الثأر صورة بدائية همجية هذبت بعد نشأة النظام المركزي للحكم فتحوّلت إلى شريعة القصاص، وبذلك أبقي القانون السماوي والقانون الوضعي على الغاية من الثأر واستئصال أساليبه الضارة بما يؤدي إليه من مذابح همجية يتقوض فيها نظام المجتمع واقتصاده وسائر مقوماته البشرية والمادية، ومؤدى هذا النظام أنه في حالة عدم إمكان القصاص من القاتل نفسه يقتص من أي من أقاربه، ويتجه القصاص دائماً إلى تحقيق التعادل بين الجماعتين، جماعة المعتدي وجماعة المضرور، وإعادة حالة توازن القوى التي كانت موجودة قبل وقوع الضرر، وهكذا كان الثأر شكلاً جماعياً للانتقام بمعناه العام، وهو مقابلة العدوان بالعدوان، إذ كان أفراد القبيلة جميعاً يتضامنون في توقيع العقوبة على المعتدي وقبيلته، وكان أفراد

(1) سورة البقرة، آية 179.

القبيلة جميعاً يتضامنون كذلك في حمايته، ولما جاء الإسلام جرد جماعة المعتدى عليه من حق القصاص باليد، وجعل هذا الحق للسلطة الحاكمة تنظيمياً وتهذيباً له⁽¹⁾.

أما عن الثأر للإخوة فإن الشعر الجاهلي يزخر بالقصائد التي تحمل معاني الانتقام والتهديد والحرص على الثأر ورفض الصلح والدية.

يؤكد الشعر الجاهلي مسألة إلحاح الأخ على طلب ثأر أخيه، إن كان مقتولاً، وكأنه قد تسلم زمام الأمور من بعده، فألقيت على عاتقه مهمة الأخذ بالثأر، رافضاً مبدأ قبول الدية والصلح.

"وللعامل النفسي أثر كبير في تحريك مشاعر الأخ وأهل المقتول نحو السعي إلى إدراك الثأر، إذ يصل الأخ إلى مرحلة يائسة بعد مقتل أخيه، فيقع في أسر الآلام والأحزان التي لا يستطيع الخروج منها إلا إذا ظفر بالقاتل واقتص منه، متجاوزاً بذلك كل ما يقف أمامه من عوائق تحول بينه وبين تحقيق ما يصبو إليه، لأنه إن لم يحقق مقصده، فإنه واقع في الخزي والعار لا محالة، حسب مبادئ المجتمع الجاهلي وقوانينه التي تتعلق بمبدأ الثأر"⁽²⁾.

ولقد كان دافع الثأر للأخ قوياً كالتيار الجارف لا يقف أمامه شيء ولا حتى صلة القرابة: "ولم تكن القرابة الآصرة لتحول بين الأكثرين وبين الاشتفاء بالثأر من أقاربهم، فالقرابة ما كانت لتكفكف من حفيظة غير الحكماء، ولم يكن يشفيهم إلا أن تتهل رماحهم من دماء أقاربهم الذين قتلوا من هو أقرب منهم، وإذا ذكر بعض العقلاء بحق القرابة اتهموا مذكرهم بأنهم لا يحسون إحساسهم ولو أحسوه ما حاولوا أن يثنوه"⁽³⁾.

وقد امتدت عادة الثأر عبر القرون من العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر، وإن كانت قد خفت حدتها ولكنها ما زالت تطل علينا من حين إلى آخر في

(1) فتح الباب، حسن، (1425هـ)، فن الرثاء في الشعر العربي القديم، مجلة جذور، العدد 18،

النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ص316، 317.

(2) المبييضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، ص196.

(3) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص208.

بعض البلاد العربية، وخاصة تلك التي ليس فيها مدنية ويغلب عليها التعصب القبلي.

ومن المؤكد أن رابطة الإخوة قوية، وفقد الأخ المقتول يؤلم ويوجع ولا تهدأ النفس إلا بالثأر له، وهذا ما عبّر عنه الشعراء والشواعر في العصر الجاهلي في قصائدهم الشعرية التي تناولت رثاء الأخ، وتهديد القاتل وأهله.

2.4 الحرص على إدراك الثأر:

لقد كان العربي في الجاهلية حريصاً على إدراك الثأر، وكان دور الرجال في ذلك هو التهديد بأخذ الثأر والسعي بكل وسيلة لإدراكه، أما دور النساء فتمثل في التحريض على الأخذ بالثأر، ولقد كان الحرص على إدراك الثأر للأخ يظهر بقوة في الشعر الجاهلي، ومن صور الحرص على الأخذ بالثأر موقف المهلهل بن ربيعة الذي أكد رغبته الشديدة في الثأر لأخيه كليب قائلاً⁽¹⁾:

إِنَّا بُوْ تَغْلِبُ شُمَّ مَعَاطِسْنَا بِيضُ الْوُجُوهِ إِذَا مَا أَفْزَعَ الْبَلَدُ
قَوْمٌ إِذَا عَاهَدُوا وَقَّوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا وَإِنْ شَهِدُوا يَوْمَ الْوَعَى اجْتَهَتْ دُؤَا
وَإِنْ دَعَوْتَهُمْ يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ جَاؤُوا سِرَاعًا وَإِنْ قَامَ الْخَنَى قَعَدُوا
لَا يَرْقُدُونَ عَلَى وَتَرٍ يَكُونُ لَهُمْ وَإِنْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَتَرُ الْعِدَى رَقَدُوا

يفخر المهلهل في الأبيات السابقة بأنه من قوم لا يتركون ثأراً لهم وهو بذلك يشير إلى أنه لا يمكن أن يترك ثأره بل إنه ملح في طلبه.

ويهدد المهلهل قبيلة بني ذهل بالثأر لأخيه طالباً منهم أن يردوا كليباً مرة أخرى إلى الحياة، وفي ذلك تعجيز وإنذار لهم بعدم تراجعهم عن الثأر لأخيه فيقول⁽²⁾:

قُلْ لِبَنِي ذَهْلٍ يَرْدُونَهُ أَوْ يَصْبِرُوا لِلصَّيْلِمِ الْخَنْفَقِيقِ

(1) المهلهل، الديوان، ص25.

(2) المصدر نفسه، ص56؛ الصيلم: السيف؛ الخنفقيق: الداهية أو الدواهي.

ويؤكد المهلهل بأنه لن يترك ثأره فيقول (1):

لَيْسَ أَخُوكُمْ تَارِكاً وَتَرَهُ وَلَيْسَ عَنْ تَطْلَابِكُمْ بِالْمُفِيقِ
ويؤكد عامر بن الطفيل حرصه الشديد على الثأر لأخويه الحكم وحنظلة،
فيقول (2):

وَلَا تُأْرَنَّ بِمَالِكَ وَبِمَالِكَ وَأَخِي الْمَرَوْرَةَ الَّذِي لَمْ يُسَدِّ
وَقَتِيلُ مُرَّةٍ أَثَارَنَّ فَإِنَّهُ فَرَعٌ وَإِنْ أَخَاهُمْ لَمْ يُقْصَدِ
ويصر العباس بن مرداس في رثائه لأخيه عمرة بن مرداس على الأخذ
بثأره، ويقسم على أنه سيغير على أعدائه في عقر دارهم ليثأر لأخيه فيقول (3):
فَلَا وَضَعْتُ عِنْدِي حَصَانٌ خِمَارَهَا وَلَا ظَفَرْتُ كَفِّي بِقِرْنٍ أَنْزَلُهُ
لَأَنْ لَمْ أَزُرْ خَوْلَانَ فِي عَقْرِ دَارِهَا بِأَرْعَنَ رَجَافٍ تَرْجَى قَنَابِلُهُ
وَأَشْفِي غُلِيلِي مِنْ سَرَاةٍ قُضَاعَةٍ وَكُلُّ صَقِيلٍ يَمْلَأُ الْكَفَّ حَامِلُهُ
ولما بلغ تأبط شراً قتل أخيه أقسم أن يثأر له من قاتله ولو كان ثمن ذلك
حياته، فيقول مهدداً (4):

حَيَاتِي أَوْ أَزُورَ بَنِي عُتَيْرٍ وَكَاهِلَهَا بِجَمْعِ ذِي ضَبَابٍ
ومن شدة حرص المهلهل على الثأر لأخيه كليب يؤكد أنه لا يهاب الموت في
سبيل إدراك الثأر، لأنه لا يموت ذكر من أخذ بثأره فيقول مهدداً (5):
فَقَتَلًا بِتَقْنِيلٍ وَعَقْرًا بِعَقْرِكُمْ جَزَاءَ الْعُطَاسِ لَا يَمُوتُ مَنْ الثَّأْرُ
ويؤكد المهلهل سرعة انتقامه من موتوريه، فهو لن يمهلهم كثيراً وسيكون
انتقامه منهم قاسياً وشديداً.

(1) المهلهل، الديوان، ص58؛ وتره: الثأر.

(2) الأصمعي، الأصمعيات، ص190-191.

(3) السلمي، الديوان: 136.

(4) ابن سفيان، الديوان، ص309.

(5) المهلهل، الديوان: 27؛ العقر: القتل والإهلاك؛ جزاء العطاس: الدعاء بالخير.

وقد يبالغ الأخ في إدراك الثأر لأخيه فلا يكتفي بقتل قاتل أخيه بل يطلب الثأر من أبناء قبيلة القاتل ج ميعهم، فمن ذلك قول المهلهل بن ربيعة الذي يتوعد بالثأر من قبائل بكر كلها ويهدم بنيانها، ويرى أوصالهم وجماجمهم تنهشها الضباع والسباع، تنقر عيونهم وتمزق أعضاءهم وتتجاذبها⁽¹⁾:

كَلاَّ وَأَنْصَابَ لَنَا عَادِيَّةٌ مَعْبُودَةٌ قَدْ قُطِّعَتْ تَقْطِيعَا
حَتَّى أَبْيَدَ قَبِيلَةً وَقَبِيلَةً وَقَبِيلَةً وَقَبِيلَاتَيْنِ جَمِيعَا
وَتَذُوقُ حَتْفًا آلُ بَكْرٍ كُلِّهَا وَنَهْدَ مِنْهَا سَمَكَهَا الْمَرْفُوعَا
حَتَّى نَرَى أَوْصَالَهُمْ وَجَمَاجِمًا مِنْهُمْ عَلَيْهَا الْخَامَعَاتُ وَقُوعَا
وَنَرَى سِبَاعَ الْبَرِّ تَنْقُرُ أَعْيُنًا وَتَجْرُ أَعْضَاءَ لَهُمْ وَضُلُوعَا

وفي قصيدة أخرى يقسم المهلهل بأنه سيقتل بكليب كل أمير عظيم من أمراء بكر، ويفخر بأنه قد انتقم منهم وأعمل فيهم القتل وداسهم بالنعال، جزاء ما جنوه من قتل كليب، ولم يترك منهم غير الضعفاء والنساء والأطفال ل، فيقول شافياً غليله منهم⁽²⁾:

قَدْ شَفِيتُ الْغَلِيلَ مِنْ آلِ بَكْرٍ آلَ شَيْبَانَ بَيْنَ عَمٍّ وَخَالٍ
كَيْفَ صَبْرِي وَقَدْ قَتَلْتُمْ كَلِيبًا وَشَقِيتُمْ بِقَتْلِهِ فِي الْخَوَالِي
فَلَعَمْرِي لَأَقْتُلَنَّ بِكَلِيبٍ كُلَّ قَيْلٍ يُسَمَّى مِنَ الْأَقْيَالِ
وَلَعَمْرِي لَقَدْ وَطِئْتُ بَنِي بَكْرٍ بِمَا قَدْ جَنَوُهُ وَطَاءَ النَّعَالِ
لَمْ أَدْعُ غَيْرَ أَكْلِبٍ وَنِسَاءٍ وَإِمَاءٍ حَوَاطِبٍ وَعِيَالِ
فَأَشْرَبُوا مَا وَرَدْتُمْ الْآنَ مِنَّا وَاصْدِرُوا خَاسِرِينَ عَنْ شَرِّ حَالِ

ويرى المهلهل أن كل قتيل غير آل همام يعد صغير المقام، وليس من مقام كليب، حتى ينال القتل آل همام، فإنهم عندئذ يكونون وفاء به، فيقول⁽³⁾:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كَلِيبٍ حُلَامٍ حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ هَمَّامٍ

(1) المهلهل، الديوان، ص50-51، حتفاً: موتاً؛ الصمك: السقف، الخامعات: الضباع.

(2) المصدر نفسه، ص71.

(3) المصدر نفسه: 76؛ حُلَام: الجدي الصغير.

وفي قصيدة أخرى تصل المبالغة في الثأر بالمهلل إلى أن يهدد بقتل قبائل تغلب فتملاً جثثهم كل مكان، وتتبادل النسور نهش جثثهم، فيقول (1):

فَلَا تُرَكَّنْ بِهِ قَبَائِلَ تَغْلَبُ قَتَلَى بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَمَكَانٍ
قَتَلَى تُعَاوِرُهَا النَّسُورُ أَكْفُهَا يَنْهَشْنَهَا وَحَوَاجِلُ الْغَرْبَانِ

وقد بالغ باعث بن صريم في الثأر من بني أيد من تميم الذين قتلوا أخاه وائلاً "إذ روي أن باعثاً آل على نفسه أن يقتل بوائل منهم حتى يلقي الدلو فتمتلئ من دمائهم، وقد أبر بقسمه، وصور ذلك في قوله (2):

سَائِلُ أَسِيدٍ هَلْ ثَارَتْ بَوَائِلُ أَمْ هَلْ شَفِيَتْ النَّفْسُ مِنْ بَلْبَالِهَا
إِذْ أَرْسَلُونِي مَائِحاً بِدِلَائِهِمْ فَمَلَأَتْهَا عَلَقاً إِلَى أَسْبَالِهَا

وتقول جنوب أخت عمرو ذي الكلب في رثاء أخيها مصورة حرصها على الثأر له بأنه لا يكفيها قتل كل فرد في قبيلة قاتل أخيها، فتقول (3):

وَاللَّهِ لَوْ بِكَ لَمْ أَدْعُ أَحَدًا لِأَقْتَلْتُ لَفَاتَتِي الْوَتِرُ

ومن أهم مظاهر الحرص على الثأر للأخ التحريض والحث على طلب الثأر، ويبدو ذلك واضحاً وجلياً في شعر رثاء النساء، ومن أشهر شاعرات الجاهلية في التحريض على الثأر للأخ الخنساء التي حرّضت قومها على الأخذ بثأر أخيها صخر قائلة (4):

لَا نَوْمَ حَتَّى تَعُودَ الْخَيْلُ عَابِسَةً يَنْبِذْنَ طَرَحاً بِمُهْرَاتٍ وَأَمْهَارِ
أَوْ تَحْفَظُوا حَفْزَةً وَالْمَوْتُ مُكْتَتٌ عِنْدَ الْيُبُوتِ حُصِيناً وَابْنِ سَيَّارِ
فَتَغْسِلُوا عَنْكُمْ عَاراً تَجَلَّلَكُمْ غَسَلَ الْعَوَارِكِ حَيْضاً بَعْدَ أَطْهَارِ

فهي لا ترتاح ولا تهدأ حتى يهجم قومها على الأعداء بكل ضراوة وقسوة يتم لها فيها قتل واثريها ومحو العار الذي لصق بقومها.

(1) المهلهل، الديوان، ص88.

(2) الطائي، الحماسة: 532/2، بلبالها: اهتمامها بطلب الثأر.

(3) مارديني، شواعر الجاهلية، ص240.

(4) الخنساء، الديوان، ص301، 302، العارك: الحائض، بعد أطهار: عند انقطاع حيضها.

وقالت الخنساء تحرض قومها على الثأر لدم أخيها صخر، وهي تذكرهم بأن
صخراً قد قُتل دون أن يُدرك ثأره، قائلة(1):

أَبْنِي سُلَيْمَ إِن لَقَيْتُمْ فَقَعَسَا فِي مَخْبِسِ ضَنْكَ إِلَى وَعَرِ
فَالْقُوْهُمْ بُسُيُوفِكُمْ وَرَمَاحِكُمْ وَبَنَاضِحَةٍ بِالنَّبْلِ كَالْقَطْرِ
حَتَّى تَفْضُوا جَمْعَهُمْ وَتَذْكُرُوا صَخْرًا وَمَصْرَعَهُ بِلا ثَأْرٍ

ومن صور الحث على إدراك ثأر الأخ ما يروى أنه "دخلت أميمة امرأة
عبن ومرة على أبي خراش وهو يلعب ابنه، فقالت له : يا أبا خراش تناسيت
عروة وتركت الطلب بثأره ولهوت مع ابنك، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك،
وبطلب قاتلك حتى يقتله، فبكى أبو خراش وهو ينفي أنه نسي ثأر أخيه، فقال في
ذلك(2):

لَعَمْرِي لَقَدْ رَاعَتْ أُمَيْمَةُ طَلْعَتِي وَإِنْ ثَوَائِي عِنْدَهَا لَقَلِيلُ
تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ عُرْوَةٍ لَاهِيَا وَذَلِكَ رُزْءٌ لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ
وَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أُمَيْمَ جَمِيلُ

وقد تستثير المرأة الرجال وتحثهم على الأخذ بالثأر بالكلمات اللاذعة
الموجعة التي لا تطاق، و وصفهم بالإماء العاهرات، ويبدو ذلك فيما قالته هند بنت
حذيفة التي لامت قومها بكلمات قاسية لتقاعسهم عن الثأر لأخيها حصن فقالت(3):
فَإِنْ لَمْ تُصَبِّحُوا الْقَوْمَ غَارَةً يُحَدِّثُ عَنْهَا وَارِدَ بَعْدِ صَادِرِ
وَتَرْمُوا عَقِيلًا بِالَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا بَقَاءٌ فَكُونُوا كَالْإِمَاءِ الْعَوَاهِرِ
فقد طعنت هند أبناء قومها في رجولتهم حين شبهتهم بالجواري العواهر إن لم
يثأروا لأخيها، وذلك حتى تستثير حميتهم، فيهبوا للثأر.

(1) الخنساء، الديوان، ص236-237.

(2) الهذليين، الديوان، ص116.

(3) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص102.

وتحضر أسماء بنت ربيعة قومها على الثأر لأخيها كليب قائلة⁽¹⁾:

يَا بَنِي تَغْلِبَ لَا تَتَّأَخَّرُوا واطلبوا ثأرَ مَلِيكَ الْجَحْفَلِ
إِنِّي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةً فعسى الأيامُ أَنْ تُعْقِبَ لِي

"ولقد تعمد المرأة إلى كلام مثير يشعر المتواني عن الثأر بعجزه، ليدفع التهمة عن نفسه بالجد في الثأر، كما قالت ريحانة بنت معد يكرب لابنها دريد بن الصمة⁽²⁾ أن مر حول على مقتل أخيه عبد الله : يا بني إن كنت عجزت عن الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد - تعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي - فأنف ابنها من ذلك وحلف ألا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره"⁽³⁾.

وقد بدا ذلك في قول دريد⁽⁴⁾:

تَكُنْتُ دُرَيْدًا إِنْ أَتَتْ لَكَ شَتْوَةٌ سَوَى هَذَحَتَّى تَدُورَ الدَّوَائِرُ
وَشَيْبَ رَأْسِي قَبْلَ مَشْيِيهِ بُكَاءُكَ عَبْدَ اللَّهِ وَالْقَلْبُ طَائِرُ
إِذَا أَنَا حَاذَرْتُ الْمَنِيَّةَ بَعْدَهُ فَلَا وَأَلَتْ نَفْسٌ عَلَيْهَا أَحَاذِرُ

وتحنگبشة أخت عمرو بن معد يكرب قهما على أن يثأروا لأخيها عبد الله، وزادت من حميتهم عندما وصفتهم بنعام مجدوع الأذان، لا يستطيعون ورود الماء إلا بعد النساء فقالت في ذلك⁽⁵⁾:

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَتَّأَرُوا وَاتَّديتُمْ فَمَشَوْا بِآذَانِ النَّعَامِ الْمُصَلَّمِ
وَلَا تَرْتَدُّوا إِلَّا فُضُولَ نِسَائِكُمْ إِذَا ارْتَمَلْتَ أَعْقَابُهُنَّ مِنَ الدَّمِ

(1) ميدان، شعر تغلب في الجاهلية، ص212-213.

(2) دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية بن جداعة بن بكر بن هوزان، فارس مشهور وشاعر فحل وهو أحد الشجعان المشهورين وذوي الرأي، كان سيد جشم وفارسها، أدرك الإسلام ولم يسلم.

(3) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص446-447.

(4) الجشمي، الديوان: 80؛ ألت: نجت.

(5) مارديني، شواعر الجاهلية، ص104.

"ويمكن القول إن التقاعس والتخاذل عن السعي في إدراك ثأر الأخ، كان مدعاة للوم والسخرية من القوم حسب أعرافهم وتقاليدهم الاجتماعية، ومن ذلك أن قيساً بن عاصم أخذ يلوم خالداً بن مالك، الذي تخاذل وتهاون في تحقيق ثأر أخيه ربعي، الذي قتله ابن حنظلة بن يسار العجلي من بكر بن وائل، فقال الشاعر في ذلك:

وَلَوْ كُنْتَ حُرّاً يَا ابْنَ سُلْمَى بْنِ جَنْدَلٍ نَهَضْتَ وَلَمْ تَقْصِرَ لِسُلْمَى بْنِ جَنْدَلٍ
فَمَا بَالُ أَصْدَاءِ بَفْلَجٍ غَرِيبَةٍ تُتَادِي مَعَ الْأَطْلَالِ يَا ابْنَ حَنْظَلٍ
صَوَادِي لَا مَوْلَى عَزِيزٍ يُجِيبُهَا وَلَا أَسْرَةَ تَسْقِي حَرَاماً بِمَنْهَلٍ
فهو يعير على مالك تخاذله، وتقاعسه على أخذه ثأر أخيه خوفاً من الردى، وهذا الموقف منه لا يدل على سيادته وشرف نسبه في قومه؛ لأنه ترك أخاه وتخلي عن الأخذ بثأره، فبقيت أصداء أخيه تتادي وتستحث من يسمعون بأن يأخذوا بثأر صاحبها ربعي" (1).

"وعلى نهالج نفسه نرى قيساً بن زهير (2) الذي كان حريصاً على تحقيق غايته النبيلة المتمثلة في إدراك الثأر من قتلة أخيه مالك، خشية اللوم والوقوع تحت طائلة المسؤولية، ولذلك هب يحث الربيع بن زياد من قبيلته على النهوض مع قومه العباسيين لحرب الذبيانين، وكأنه قد استاء من مو قف القبيلة وما حل بها بعد مقتل أخيه، فأخذوا يتوعدون بني بدر قتلة أخيه، فأشار قيس إلى هذا المقصد بقوله (3):

وَبَنُو بَدْرٍ بِمَقْتَلِ مَالِكٍ يَخْذُلُنَا فِي النَّائِبَاتِ رَبِيعِ
وَكَانَ زِيَادٌ قَبْلَهُ يَتَّقَى بِهِ مِنَ الدَّهْرِ أَنْ يَوْمَ أَلَمَ فَظِيعُ
فَقُلْ لِرَبِيعٍ يَحْتَذِي فِعْلَ شَيْخِهِ وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَافِظٌ وَمُضِيعُ

(1) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت: 630هـ)، (1987)، الكامل في التاريخ،

ط1، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 515/1.

(2) قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن عيس بن بغيض، شاعر جاهلي وفارس مشهور من فرسان عيس في حرب داحس والغبراء، أدرك الإسلام وأسلم، ثم ارتد وتنتسك.

(3) ابن زهير، قيس (ت: 16هـ)، (1972)، شعر قيس بن زهير، تحقيق: عادل البياتي، مطبعة الأديب، بغداد، العراق، ص45.

وَالْأَفْمَالِي فِي الْبِلَادِ إِقَامَةً وَأَمْرُ بَنِي بَدْرِ عَلَى جَمِيعٍ
ومن صور الحض على الثأر للأخ قول المسيب بن علس يدعو للثأر لقتيل
مرة، وأن لا يذهب دمه هدرًا⁽¹⁾:

وَقَتِيلَ مُرَّةً أَثَارَنَ فَإِنَّهُ فَرَعٌ وَإِنْ أَخَاكُمُ لَمْ يَثَارِ
ولا تتم الراحة والسكينة إلا بإدراك الثأر، فمن ذلك قول دريد بن الصمة
يفخر بانتقامه من قاتل أخيه وبلوغه ثأره⁽²⁾:

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ أَبَا غَالِبٍ أَنْ قَدْ ثَارْنَا بِغَالِبِ
وَأَبْلَغْ نُمَيْرًا إِنْ مَرَرْتَ بَدَارَهَا عَلَى نَائِيهَا فَأَيُّ مَوْلَى وَطَالِبِ
قَتَلْتُ بَعْدَ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُؤَابَ بْنَ أَسْمَاءَ بْنَ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ
وخرج السمع بن جابر أخو تابط شراً - في صعاليك من قومه يريد الغارة
على بني عتير ليثأر بأخيه عمرو بن جابر، حتى إذا كان ببلاد هذيل لقي راعياً لهم
فسأله عنهم فأخبره بأهل بيت من عتير كثير مالهم، فبيتهم، فلم يفلت منهم مخبر،
واستاقوا أموالهم، فقال في ذلك السمع بن جابر⁽³⁾:

بِأَعْلَى ذِي جَمَاحٍ أَهْلُ دَارٍ إِذَا ظَنَنْتَ عَشِيرَتُهُمْ أَقَامُوا
طَرَقْتُهُمْ بِفَتِيَانٍ كِرَامٍ مَسَاعِيرٍ إِذَا حَمِيَ الْمَقَامُ
مَتَى أَدْعُ مِنْ فَهْمٍ تُجِبْنِي وَعَدْوَانِ الْحَمَاةِ لَهُمْ نِظَامُ
ويفخر السمع في الأبيات السابقة بالانتقام ثأراً لأخيه، وكان معاوية بن عمرو
ابن الشريد فارساً شجاعاً، فأغار في جمع من بني سليم على غطفان، وكان صميم
خيلهم، فنذر به القوم فاحتربوا فلم يزل يطعن فيهم ويضرب، فلما رأوا ذلك تهيأ له
ابنا حرملة دريد وهاشم، فاستطرد له أحدهما، فحمل عليه معاوية فطعنه، وخرج
عليه الآخر وهو لا يشعر فقتله، فلما دخلت الأشهر الحرم، ورد عليهم صخر، فقال :

(1) ابن علس، زهير، (1994) شعر المسيب بن علس، ط 1 جمع وتحقيق : أنور أبو سويلم،
جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، ص76.

(2) الجشمي، الديوان، 91.

(3) السلمي، الديوان، ص310-311.

أيكم قاتل أخي؟ فقال أحد ابني حرمة للأخر: خبره! فقال: استطردت له فطعنني هذه الطعنة، وحمل عليه أخي فقتله، فأينا قتلت فهو ثأرك أما إنا لم نسلب أخاك، قال : فما فعلت فرسه السمي؟ قال ها هي تلك فخذها، فانصرف بها . فقيل لصخر : ألا تهجوهم؟ فقال البيتي وبينهم أقذع من الهجاء، ولو لم أمسك عن سبهم إلا صيانة للساني عن الخنا لفعلت، فلما انقضت الأشهر الحرم جمع لهم ليغير عليهم، فنظرت غطفان إلى خيله بموضعها، فقال بعضهم لبعض : هذا صخر بن الشريد على فرسه السمي، فقيل: كلا السمي غراء وكان قد حمم غرتها فأصاب فيهم وقتل دريد بن حرمة⁽¹⁾ وأما هاشم فإن قيس بن الأسوار الـ جشمي من جشم بن هوازن بن منصور لقيهم منصرفين كل واحد منهم من وجهه، فرآه وقد انفرد لحاجته، فقال : لا أطلب بمعاوية بعد اليوم فأرسل عليه سهماً ففلق قحقه⁽²⁾.

ولقد افتخر صخر بثأره لمعاوية بقتله دريد، فقال⁽³⁾:

وَلَقَدْ قَتَلْتُكُمْ ثَنَاءً وَمَوْحَداً وَتَرَكْتُ مُرَّةً مِثْلَ أَمْسِ الْمُدْبِرِ
وَلَقَدْ رَفَعْتُ إِلَى دُرَيْدٍ طَعْنَةً نَجْلَاءَ تَرْغُلٍ مِثْلَ عَطِّ الْمَنْحَرِ
وأشادت الخنساء بقيس الجشمي الذي قتل هاشم بن حرمة الذي قتل أخاها معاوية، فقالت⁽⁴⁾:

فَدَى لِلْفَارِسِ الْجُشْمِيِّ نَفْسِي أَفْدِيَهُ بِمَالِي مِنْ حَمِيمٍ
وقد يمضي بالشاعر زمن طويل بعد قتل أخيه أو قريبه، بيد أن قيمة الشجاعة التي تكمن فيه تجعله يستمر في الشعر لإدراك الثأر، وهذا ما حدث لمكرز بن حفص القرشي⁽⁵⁾ حين قتل أخاه عامر بن يزيد الكناني، ولهت عنه قریش، فلم تطلب به، لما بينها وبين كنانة من دماء غير أن مكرز ظل طاوياً كشحه على الحقد

دريد⁽¹⁾ حرمة بن الأسعر بن ريث بن غطفان وهو أخو هاشم بن حرمة، وهما شاعران جاهليان.

(2) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، 342/1، 344.

(3) الخنساء، الديوان، ص426، ترغل: تخرج الدم قطعة قطعة.

(4) المصدر نفسه، ص427.

(5) مكرز بن حفص بن الأخيف بن علقمة بن الحارث بن لؤي، شاعر جاهلي.

وضامراً الانتقام من عامر، حتى إذا صادفه في البادية، بعد مرور زمن، بادر إليه، وعلاه بالسيف فقتله.

وقد صور ما جاش في نفسه من مشاعر وما قام فيها من بواعث الانتقام قائلاً⁽¹⁾:

وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ هُوَ عَامِرٌ تَذَكَّرْتُ أَشْلَاءَ الْحَبِيبِ الْمُحَبِّ
وَقُلْتُ لِنَفْسِي إِنَّهُ هُوَ عَامِرٌ فَلَا تَرَهَّبِيهِ وَانْظُرِي أَيَّ مَرْكَبٍ
وَأَيَقَنْتُ أَنِّي إِنْ أُجِلُّهُ ضَرْبَةً مَتَى مَا أَصَبُهُ بِأَلْفِ فُرَافِرٍ يَعْطِبُ
خَفَضْتُ لَهُ جَأَشِي وَأَلْقَيْتُ كُلَّي عَلَى بَطْلٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُجَرَّبٍ
وَلَمْ أَكُ لِمَا التَّفَّ رُوعِي وَرُوعُهُ عَصَاةً هُجْنٍ مِنْ نِسَاءٍ وَلَا أَبٍ
حَلَلْتُ بِهِ وَتَرِيْعُولَمْ أَنَسَ ذَحْلُهُ إِذَا مَا تَتَأَسَى ذَحْلُهُ كُلُّ عَيْهَبٍ

وعندما قُتل أخو مالك بن حريم الهمداني لم يدر من قتله، حتى علم أنه أحد بني قمير من مراد، فأغار عليهم، وقتل قاتل أخيه، وقد صور في شعره ما انتابه من مشاعر الحزن والأسى غداة مقتل أخيه، وقد ظل على هذه الحال حتى أدرك بئاره، وشفى نفسه مما بها من ألم ووجد⁽²⁾:

يَا رَاكِباً بَلَّغْنِ وَلَا تَدَعَنْ بَنِي قُمَيْرٍ وَإِنْ هُمْ جَزَعُوا
كَيْ تَجِدُوا مِثْلَ مَا وَجَدْتَ فَقَدْ أَصْبَحْتَ نِضْواً وَمَسْنَى الْوَجَعِ
لَا أَسْمَعُ اللَّهُوَ فِي الْحَدِيثِ وَلَا يَنْفَعُنِي فِي الْفِرَاشِ مُضْطَجِعُ
لَا وَجْدٌ تَكَلَّى كَمَا وَجَدْتُ وَلَا وَجْدٌ عَجُولٍ أَضْلَاهَا رَبْعُ
أَوْ تَوْجِدُ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ يَوْمَ رَوَّاحِ الْحَجِيجِ إِذْ دَفَعُوا
يَنْظُرُ فِي أَوْجِهِ الرِّجَالِ فَلَا يَعْرِفُ شَيْئاً فَالْوَجْهِ مِلْتَمَعُ
بَنِي قُمَيْرٍ قَتَلْتُ سَيِّدَكُمْ فَالْيَوْمَ لَا فِدْيَةَ وَلَا جَزْعُ

(1) زيتون، الإنسان في الشعر الجاهلي، ص 232-233؛ الذحل: الثأر.

(2) المرجع نفسه، ص 147، وانظر: اليزيدي، الأمالي: 123/2؛ وانظر: الميداني، مجمع الأمثال: 128/1.

والرغبة في الثأر للأخ قد تجعل الموتور يفعل أي شيء للانتقام من الواتر، ومن ذلك أن عمرو بن الحارث، الملقب بأشعر الرقبان الأسدي، كان عمرو بن هند قد قتل أخاه، فظل عمرو يعمل الحيلة حتى سرق له ولدين وذبحهما، وفي ذلك يقول (1):

إِنَّا كَذَلِكَ كَانَ عَادَتُنَا لَمْ نُغْضِ مِنْ مَلِكٍ عَلَى وَتَرٍ
ويفخر قيس بن زهير بإدراك ثأر أخيه عندما قتل مالك بن بدر بأخيه مالك ابن زهير في حرب داحس والغبراء، فيقول (2):

عَسَى أَنْ نَعُودَ بِأَحْلَامِنَا وَتَتْرَكَ مَا هَا هُنَا أَجْمَعُ
فَإِنَّ الْبَلَاءَ يَجُرُّ الْفَنَاءَ وَإِنَّ الْبَقَاءَ لَنَا أَوْسَعُ
وَمَا جِئْتُ إِلَّا الَّذِي جِئْتُمْ وَكُلَّ الَّذِي كَانَ يُسْتَفْطَعُ
قَتِيلٌ لَنَا وَلَكُمْ مِثْلُهُ وَوَهْيٌ لَنَا وَلَكُمْ يُرْقَعُ
أما المهلهل بن ربيعة فلم يكن مكتفياً بقتل حساس ثأراً لأخيه؛ ولكنه ثأر من قبيلة بكر كلها، وكل من ظاهرهم وعاونهم؛ ولهذا نجد أن إدراك الثأر في شعر المهلهل لا ينتهي وكلما أعمل سيفه في القبائل المعادية شعر بالنشوة والسعادة التي تجعله لا يكتفي، بل يطلب المزيد من القتلى، ومن ذلك قوله (3):

وَسَقَيْتُ نَيْمَ اللَّاتِ كَأْسًا مُرَّةً كَالنَّارِ شُبِّ وَقُودُهَا بِضِرَامٍ
وَبُيُوتَ قَيْسٍ قَدْ وَطَأْنَا وَطَاءً فَتَرَكْنَا قَيْسًا غَيْرَ ذَاتِ مَقَامٍ
وَلَقَدْ قَتَلْتُ الشَّعْثَمِينَ وَمَالِكًا وَابْنَ الْمُسَوَّرِ وَابْنَ ذَاتِ دَوَامٍ
وَلَقَدْ خَبَطْتُ بُيُوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً أَخَوَانَنَا وَهُمْ بَنُو الْأَعْمَامِ

(1) المرزباني، معجم الشعراء، ص 19.

(2) ابن زهير، قيس، (1411هـ) ديوان شعر بني عبس، ط 1، جمع وتحقيق وشرح: عبد العزيز بن محمد الفيصل، القسم الثاني، دون ناشر، ص 99.

(3) المهلهل، الديوان، ص 80 تيم اللات: قبيلة من ربيعة: الشعثمين: ابنا معاوية شعثم وعبد شمس.

ويؤكد المهلهل أن الثأر لا يتحقق بقتل جساس وحده بل يتحقق بقتل قبيلة بكر كلها، حتى أنه ينتقم من الأجنة في بطون أمهاتهم فيقول في يوم واردات وفرار جساس (1):

لَوْ أَنَّ خَيْلِي أَدْرَكَتْكَ وَجَدْتَهُمْ مِثْلَ اللَّيْثِ بِسِتْرِ غَبٍ عَرِينِ
وَلَا وَرَدَنَّ الْخَيْلَ بَطْنَ أَرَاكَةِ وَلَا أَقْضَيْنَ بِفَعْلٍ ذَاكَ دُيُونِي
وَلَا قُتِلَنَّ جَاحِجاً مِنْ بَكْرِكُمْ وَلَا بُكَيْنَ بِهَا جُفُونِ عِيُونِ
حَتَّى تَظُلَّ الْحَامِلَاتُ مَخَافَةً مِنْ وَقَعْنَا يَقْذِفْنَ كُلَّ جَنِينِ
وعندما يتعلق الثأر بالقرب فإن عاطفة الثأر للأخ تتغلب على صلة القرابة، ومن ذلك أن توبة بن مضر لم يتخرج من قتل خاله بأخيه طارق رغم جزع أمه على قتل أخيها، فقال في ذلك (2):

بَكَتْ جَزَعاً أُمِّي رُمَيْلَةً أَنْ رَأَتْ دَمًا مِنْ أَخِيهَا فِي الْمَهْدِ بَاقِيَا
فَقُلْتُ لَهَا لَا تَجْزَعِي إِنَّ طَارِقاً خَلِيلِي الَّذِي كَانَ الْخَيْلَ الْمُصَافِيَا
ثم يقول إنه لا يمكن إدراك ثأر أخيه وأن يشفى غليله إلا بقتل خاله قاتل أخيه (3):

وَمَا كَانَ فِي عَوْفٍ قَتِيلٌ عَلِمْتُهُ لِيُوفِينِي مِنْ طَارِقٍ غَيْرُ خَالِيَا
ويصور قيس بن زهير قتله لأولاد عمومته الذبيانين الذين قتلوا أخوة له، ولم تشفع صلة القرابة من الرغبة في الانتقام والثأر للأخ على الرغم مما ألم به من حسرة وحزن لقتلهم، وقال في ذلك (4):

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ وَسَيفِي مِنْ حُذَيْفَةَ قَدْ شَفَانِي
فَإِنْ أَكُ قَدْ بَدَرْتُ بِهِمْ غَلِيلِي فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلَّا بَنَانِي
قَتَلْتُ بِإِخْوَتِي سَادَاتِ قَوْمِي وَقَدْ كَانُوا لَنَا حَلِي الزَّمانِ

(1) المهلهل، الديوان، ص 90.

(2) الطائي، الوحشيات، ص 82.

(3) المصدر نفسه، ص 82.

(4) ابن زهير، الديوان، ص 42.

وعانى بعض العرب في الجاهلية من الصراع النفسي الشديد بين الثأر للأخ وقتل الواتر عندما يكون من الأقارب، ومن ذلك ما جرى للحارث بن وعلة الذهلي حيث قتل أخاه بعض قومه، إذ رأى أنه إذا انتقم منهم فإنما يصيب به نفسه أولاً، وإذا عفا عنهم فيكون قد تخلى عن الثأر لأخيه، وهذا التخلي يعد أمراً عظيماً، وقد عبر عنه بقوله⁽¹⁾:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
فَلَنْ عَفَوْتُ لَأَعْفُونَ جَلالاً وَلَنْ سَطَوْتُ لَأَوْهِنَنَّ عَظْمِي

يقول حسن فتع الباب : "ويتضح مما سبق من دراسة للنماذج الشعرية حرص الأخ والأخت على إدراك ثأر الأخ المقتول، وقد ظهر دور المرأة في الحض على إدراك الثأر خاصة "إن استنهاض الرجولة للثأر أمر تجيده الأنوثة أكثر مما تجيده الذكورة، وذلك نظراً لقابلية الرجل للاستفزاز على يد المرأة التي يجد فيها -المقابل له- إحياء أو إيقاظاً لقدراته، كما أن قدرة النساء العجيبة على البكاء والتفجع أمر لا يجيده الرجال من جهة، ويخلق جواً تحريضياً انتقامياً عبر استجابة الرجال للموقف الفجائي القادر على تطوير الشعور من جهة أخرى، ولعل حلقات الندب على الميت، وهي ما تقوم به النساء في بعض أريافنا حتى اليوم هي من موروثة تلك الحقب، واستمرار لذلك التقليد الذي كان يستهدف غرز الرغبة في الثأر للصريع داخل نفوس الأحياء"⁽²⁾.

وظهر حرص الرجال على إدراك الثأر لأخيه عن طريق التهديد و الوعيد بأخذ الثأر واستنهاض همّة أفراد القبيلة لمآزرتهم لإدراك الثأر، وعند إدراك الثأر يفخر الأخ ويشعر بالسعادة وراحة النفس ويظل ينشد أبياتاً تصور فرحته بقتل قاتل أخيه، كما كان يفخر بالقتل من أهل القتل عند المبالغة في الثأر.

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار: 88/3.

(2) فتح الباب، فن الرثاء في الشعر العربي القديم، ص318.

3.4 رفض الدية:

إذا كان العرب يحرصون على الثأر والانتقام في الجاهلية، والغلو في سفك الدماء، فإنهم لم يعدموا من كان يدعو إلى السلم، ويحث على حقن الدماء وتحمل الديات، كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين عبس وذبيان، وتحملاً ديات القتلى، وكما صنع زهير بن أبي سلمى حين ندد بالحر ب وكرهاها إلى الناس، وحبب إليهم السلم والمودة والصفح والتسامح، وقد خصص جزءاً غير يسير من معلقته لذلك، وكما فعلت بهيسة بنت أوس الطائي حينما تزوجها الحارث بن عوف، ورفضت أن يقربها حتى يصلح بين عبس وذبيان، واحتمل الديات مع هرم ابن سنان⁽¹⁾.

وكانت الدية في مقابل حقن الدماء ووقف طوفان الثأر الذي يسبب الدمار للأطراف المتحاربة ويزيد من الأرامل واليتامى والأمهات الثكلى "ولذلك كان أهل الجاني وعشيرته يعمدون إلى عرض الدية والفداء ليتخلص من الطلب، وتتحرر قبيلته من المسؤولية، وقد بلغت دية النفس مئة من الإبل، ودية الملك ألفاً منها، وإذا كان القاتل سيداً شريفاً في قومه فقد يجعلون دية مثل دية الملك، فيطلبون ألف بعير، ويكون رفض الدية أو قبولها في معظم الأحيان تبعاً لقوة الأهل والعشيرة وقدرتهم على أخذ الثأر، ذلك أن الشجاعة تتطلب منهم رفض الدية، وخاصة إذا كانت من أعدائهم، وتدفعهم إلى القود والاقتصاص من الفاعل، وغسل الدم بالدم، وإلا عدوا لدى كثير من العرب ضعفاء أذلاء، تتخطفهم القبائل من غير خشية ثأر، ويقتلون من غير مخافة انتقام⁽²⁾.

حتى بلغ الأمر ببعض الشعراء أن يرى في قبوله الدية، والجنوح إلى السلم مدعاة إلى الطيرة والشؤم، فقد شبّه أبو جندب الهذلي من قام يسعى في الصلح بينه

(1) الجبوري، يحيى، (2001) شعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ط 9، مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 67.

(2) زيتون، الإنسان في الشعر الجاهلي، ص 224-225.

وبين قتلة أخيه بأحمر عاد وكليب وائل اللذين يضرب بهما المثل في الشؤم وجلب الأذى (1):

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو الصُّلْحَ فِيهِ فَإِنَّهُ كَأَحْمَرَ عَادٍ أَوْ كَلَيْبٍ لَوَائِلِ
أَتَيْتَ بِمَا تُرْجِي الْبَسُوسُ لِأَهْلِهَا بِأَلْفِي لِحَامٍ قَبْلَ أَلْفِي مُقَاتِلِ
ومن ذلك أنه حين قتل أحد بني مازن عبد الله أخا عمرو بن معد يكرب، أتت بنو مازن إلى عمرو يرجونه أن يقبل الفدية، وكاد يستجيب لهم لولا أن انبرت أخته كبشة تعيره في شعرها، وتحضه على الانتقام والثأر ورفض الدية، فقالت تحرض قومها على عدم قبول الدية (2):

وَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ إِلَى قَوْمِهِ لَا تَعْقِلُوا لَهُمْ دَمِي
وَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إِفَالاً وَأَبْكَرًا وَأُتْرِكَ فِي بَيْتٍ بِـ صَعْدَةٍ مُظْلِمِ
وَدَغَ عَنْكَ عَمْرًا إِنَّ عَمْرًا مُسَالِمٌ وَهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غَيْرُ شَبِيرٍ لِمَطِّ عَمِ
فما كان من شأن عمرو بن معد يكرب بعد أن أسمعته أخته ما أسمعته من تقريع وتأنيب، وغمز وتلميح، إذ عدل عن المصالحة، ورد الإبل التي أرسلت دية، واستعد لغزو أعدائه، وإدراك ثأره من قتلة أخيه، وقد عبر عن ذلك في قوله (3):

خُذُوا حَقَقًا مُخَطَّمةَ صَفَايَا وَكَيْدِي يَا مُخَزَّمُ أَنْ أَكِيدَا
قَتَلْتُمْ سَادَتِي وَتَرَكْتُمُونِي عَلَى أَكْتَا فِكُمْ عَيْبًا جَدِيدًا
فَمَنْ يَأْبَى مِنَ الْأَقْوَامِ نَصْرًا وَيَتْرَكُنَا فَإِنَّا لَنْ نُرِيدَا
أمّا المهلهل بن ربيعة فينفي قبوله الصلح، بل يغلق أي باب للأمل في الصلح مع أعدائه، ويقول إن الصلح يقبله بشرط أن يردوا كليباً إلى الحياة، وفي ذلك تعجيز لهم وتأكيد استحالة الصلح فيقول (4):

ذَهَبَ الصُّلْحُ أَوْ تَرُدُّوا كَلَيْبًا أَوْ تَحْلُوا عَلَى الْحَكُومَةِ حَلًّا

(1) الهذليين، الديوان، 346/1؛ البسوس: امرأة سميت الحرب بين بكر وتغلب باسمها، لأنها السبب فيها.

(2) مارديني، شواعر الجاهلية، ص 177.

(3) ابن معد يكرب، الديوان، ص 67.

(4) المهلهل، الديوان، ص 63-64.

ذَهَبَ الصَّلْحُ أَوْ تَرُدُّوْا كَلْبِيَا أَوْ أُذِيقَ الْغَدَاةَ شَيَّيَانِ تُكَلَّا
ذَهَبَ الصَّلْحُ أَوْ تَرُدُّوْا كَلْبِيَا أَوْ تَتَّالَ الْعُدَاةُ هُونَا وَذَلَا
ذَهَبَ الصَّلْحُ أَوْ تَرُدُّوْا كَلْبِيَا أَوْ تَذُوقُوا الْوَبَالَ وَرِدَا وَنَهْلَا
ذَهَبَ الصَّلْحُ أَوْ تَرُدُّوْا كَلْبِيَا أَوْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَلَالِ عَزْلَا

ويؤكد المهلهل عدم قبول الصلح، ف يدعو على كل من يقبل الصلح مع أعدائه،
فالتأثر لأخيه أمر لا تفاوض فيه ولا تنفع معه أي دية فيقول⁽¹⁾:

لَا أَصْلَحَ اللَّهُ مَنْ يُصَالِحُكُمْ مَا لَاحَتْ الشَّمْسُ فِي أَعْلَى مَجَارِيهَا

ويذكر حسين جمعة أن العرب لا يبدلون اللبن بالدم، لأن الدماء ليست مما
تكال على الحقيقة لهذا افتخر الجاهليون بأنهم تركوا أعداءهم طعاماً لعوافي الطير
والوحش، ومهما يكن أمر العرب في ذلك فقد رفضت القبائل القوية قبول الدية وكذا
الأفراد الذين آتسوا في أنفسهم العزة والقدرة، وإن جنح كثير منهم للسلم وقبلوا
الصلح، وكان من أمر واطرهم -مثلاً- أن يقدم بين يدي أهل الموتور ذوي السيادة
والشرف، فإذا تمت الموافقة أقيمت مراسيم الصلح، وسوغ بعضهم موافقته بجملة من
الأعذار، فكان يرسل سهماً في السماء فإن رجع ملطخاً بالدم نهى عن المصالحة،
وما رجع قط ملطخاً، وعرف هذا السهم بسهم الاعتذار أو التعقبة.

وطالما كانت الدية مثار خوف إن قبلها القوم لأن بعضهم كان ينكر قبول
الدية ويدعي أن القتل في قبره ينكر ما فعله الأحياء⁽²⁾.

ومن هنا كان حرص الأخ والأخت على عدم قبول الصلح والدية واضحاً في
شعر رثاء الأخ، مُقترناً بالحض على التأثر للأخ، وكان للنساء الشاعرات دور كبير
في ذلك.

(1) المهلهل، الديوان، ص93.

(2) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص59.

الفصل الخامس

الدراسة الفنية

1.5 مطلع قصيدة الرثاء:

من أهم مميزات القصائد التي تحدثت عن صورة الأخ أنها جاءت خالية من تقليد (المقدمات) الذي جعله النقاد عنصراً مهماً في بناء القصيدة العربية، فقد جعلوا للقصيدة العربية نظاماً، لا يسمحون لأحد بتجاوزه من الشعراء وإلا عيب وانتقص من شعره. يقول ابن قتيبة: "...إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها وصف الديار، والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع... ثم وصل ذلك بالنسيب"⁽¹⁾.

ونستطيع أن نقسم أقوال القدماء وآراءهم في الابتداءات إلى قسمين فهي إما ملاحظات وإما نصائح. أما الملاحظات فقد تحدثوا فيها عن أحسن الابتداءات الجاهلية (لا مجال لذكرها)⁽²⁾، وكذلك ذكر حسين عطوان أن القدماء لم يدرسوا المقدمات الجاهلية دراسة وافية، بل اكتفوا بالإشارة الموجزة والملاحظات العابرة، ودائماً يدورون حول بيت واحد، هو المطلع، ولا يلتفتون للمقدمة كاملة⁽³⁾.

فقد تحدث عن مطلع قصيدة الرثاء كثير من النقاد القدامى والمحدثين.

وقال ابن رشيق القيرواني: "أول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"⁽⁴⁾. ولأهميته اشترطوا فيه شروطاً، لا بد أن تتحقق كي يضمن الشاعر فاعليته في النفوس ومن هذه الشروط التي وضعها النقاد القدامى، أولاً ألا يطيل في النسيب بحيث يطغى على الموضوع الأساسي⁽⁵⁾. ونصيحة أخرى انفرد بها ابن

(1) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص28.

(2) عطوان، حسين، (د.ت)، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر: ص211.

(3) المرجع نفسه، ص212.

(4) القيرواني، العمدة: 218/2.

(5) عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص212.

رشيق هي أنه ينبغي للشاعر أن يتجنب : ألا وخليلي وقد " فلا يستكثر منها في ابتدائه، فإنها من علامات الضعف والثكلان"(1).

وأشار مخيمر صالح إلى المطلع بقوله : "أما المطلع فيتصل بأول الكلام، وقد أجمع النقاد على أهميته، وبينوا أثره في نفس المتلقي "(2). واتفقوا جميعاً على أنه يجب على الشاعر أن يحترز في أشعاره ويفتح أقواله مما يتطير منه، أو يستجفى من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء ووصف إقفار الديار، وتشتت الآلاف، وذم الشباب، وذم الزمان، لا سيما في القصائد التي تضمن المدائح أو التهاني، وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه(3).

وطبيعي أن تكون ملائمة المطلع للجو العاطفي الذي يعيشه الشاعر على رأس تلك الشروط، وقد جاءت مطالع قصائد رثاء الإخوة محققة لجميع هذه القيم التي ذكرها النقاد(4).

فالخنساء كثيراً ما تبدأ مطالع قصائدها بالحنن والبكاء والطلب من عينيها بالبكاء والأمثلة عن ذلك كثيرة، منها قولها(5):

أعيني جوداً ولا تجمداً
ألا تبكيان لصخر الندى
وقولها(6):

أعيني هلاً تبكيان على صخر
بدمع حثيث لا بكى ولا نزر

(1) القيرواني، العمدة: 218/1.

(2) صالح، مخيمر، (1981)، رثاء الأبناء، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ص148.

(3) عطوان، مقدمة القصيدة العربية، ص213.

(4) يعقوب، أحمد موسى عيسى، (1996)، شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ص126.

(5) الخنساء، الديوان، ص143.

(6) المصدر نفسه، ص127؛ الحثيث: أي متدارك.

وقولها⁽¹⁾:

يَا عَيْنُ مَالِكٍ لَا تَبْكِينَ تَسْكَابًا إِذْ رَابَ دَهْرٌ وَكَانَ الدَّهْرُ رِيَابًا
ورثت الفارعة بنت شداد، أختها مسعوداً فبدأت قصيدتها بالطلب من عينيها
بالبكاء على أخيها فقالت⁽²⁾:

يَا عَيْنُ بَكِي لِمَسْعُودِ بْنِ شَدَّادٍ بُكَاءَ ذِي عِبْرَاتٍ شَجَوُهُ بَادِي
وقد بدأ ليبد رثاءه لأخيه أريد ببكائه له، فيقول⁽³⁾:

أُبَكِي أَبَا الْخَرَّازِ يَوْمَ مَقَامَةٍ لِمَنَاخٍ أَضْيَافٍ وَمَأْوَى مُقْتَرٍ
وكثير من الشعراء بدأوا قصائدهم بالبكاء والحنين والألم والحسرة لفقد
الإخوان، فجاءت مطالع قصائدهم معبرة أصدق تعبير عن حالة الشاعر النفسية قبل
أن تعبر أيضاً عن جو القصيدة العام⁽⁴⁾.

2.5 خاتمة القصيدة:

ومثلما أدرك النقاد أهمية المطلع، أعلوا كذلك من شأن الخاتمة أو
(الانتهاء)⁽⁵⁾. فالمهلل التغلبي ينهي رثاءه لأخيه كليب بقوله⁽⁶⁾:

تَظَلُّ الْخَيْلُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ كَأَنَّ الْخَيْلَ تُرْحَضُ فِي غَدِيرٍ
وينتهي دريد بن الصمة رثاءه لأخيه معبد، بالغضب لمقتله، فيقول⁽⁷⁾:
فَإِنْ تَمَكَّنُ الْأَيَّامُ وَالْدَّهْرُ تَعَلَّمُوا بَنِي قَارِبٍ أَنَا غَضَابُ لِمَعْبَدٍ

(1) الخنساء، الديوان، ص148؛ راب الدهر: أي تغير عليك.

(2) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص291.

(3) ابن ربيعة، الديوان، ص 75 أبو الخراز : كنية أربد. المقامة: المجلس الذي يقومون فيه بين
يدي الملك.

(4) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص128.

(5) صالح، رثاء الأبناء، ص150.

(6) المهمل، الديوان، ص44.

(7) اليزيدي، محمد بن العباس (ت: 246هـ)، (1967)، المراثي والتعازي، مجمع اللغة
العربية، دمشق، سوريا: ص83.

وتنتهي الخنساء قصيدتها في رثاء أخيها صخر بمدحه، فتقول⁽¹⁾:
 سُمُّ الْعُدَاةِ وَفَكَالِكَ الْعُنَاةِ إِذَا لَاقَى الْوَعَى لَمْ يَكُنْ لِلْمَوْتِ هَيَابًا
 وتنتهي جنوب أخت عمرو ذي الكلب قصيدتها بمدح أخيها بالشجاعة،
 فتقول⁽²⁾:

وَيَنْزِلُ فِي غَمَرَاتِ الْحُرُوبِ إِذَا كَرِهَ الْمُحْجَمُونَ النَّزَالَ
 ولقد أنهى بعض الشعراء قصائدهم في رثاء إخوانهم بحكمة تتوافق مع
 الرثاء، فكل حي نهايته الموت، فشر الحكمة هو المتنفس الوحيد للشاعر عن همومه
 وأحزانه⁽³⁾ وقال مخيمر صالح: (إن شعر الحكمة، يصور إلى حد كبير هموماً
 وآلاماً من نوع خاص، تعكسها الحكمة، ولو بصورة غير مباشرة) ⁽⁴⁾. والأمثلة كثيرة
 عليها ومنها قول الخنساء⁽⁵⁾:

فَكُلُّ حَيٍّ صَائِرٌ لِلْبَلَى وَكُلُّ حَبْلٍ مَرَّةً لَانْدِثَارٍ
 وقول لبيد بن ربيعة العامري في رثاء أخيه أربد⁽⁶⁾:
 هَلْ النَّفْسُ إِلَّا مُتَعَةٌ مُسْتَعَارَةٌ تُعَارُ فِتْنَاتِي رَبَّهَا فَرَطٌ أَشْهُرُ
 ومن صور الانتهاء ما يتصل بالفقيد، ومن الشعراء من اختتم قصيدته بالدعاء
 للميت أو بالسقيا للقبر، والأمثلة كثيرة على ذلك كما مر معنا.

3.5 الوحدة الموضوعية:

من خلال دراسة بعض القصائد التي تطرقت إلى صورة الأخ في العصر
 الجاهلي، تبين لنا أنها تمتاز بميزة فريدة، ألا وهي وحدة الموضوع، فأكثر الشعر في

(1) الخنساء، الديوان، ص158.

(2) مارديني، شواعر الجاهلية، ص236.

(3) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص130.

(4) صالح، رثاء الأبناء، ص150.

(5) الخنساء، الديوان، ص303.

(6) ابن ربيعة، الديوان، ص258. فرط أشهر: بعد أشهر.

هذا الفن يدور حول موضوع واحد هو رثاء الأخ، وما يتصل به من بكاء وندب على الميت، والتأبين له.

والوحدة الموضوعية قد تحققت في قصائد رثاء الإخوة؛ لأنها تضم موضوعاً واحداً دارت حوله، ألا وهو الرثاء، فالموضوع قريب إلى ذات الشاعر وبعيد عن المؤثرات الخارجية "لأن الشعر الذاتي حصيلة تفكير الشاعر في فنه ولا شيء غير من حيث استيعابه همومه وأحزانه" (1). فهؤلاء الشعراء الذين رثوا إخوانهم قد عبروا عن مشاعرهم وأحزانهم بعيداً عن التأثر بالموضوعات الخارجية من التأثر بالحاكم أو المجاملة والتكسب، فجاء شعرهم يحتوي على غرض واحد هو الرثاء، بعيداً عن المبالغة والمجاملة أو الغلو ومن هذه القصائد : قصيدة أعشى باهلة، وقصيدة دريد بن الصمة في رثاء أخيه عبدالله، والخنساء في رثاء أخويها معاوية وصخر، وقصيدة سعدى بنت الشمردل (2).

ويقول مخيمر صالح أنه قد ساعد على ظهور وحدة الموضوع في صورتها الواضحة في هذا الشعر، ووروده على شكل خاطرة، في صورة مقطوعة شعرية، ومن طبيعة المقطوعة الشعرية أنها لا تستوعب أكثر من تلك الخاطرة التي زفر بها الشاعر في لحظات حزينة (3).

وعند استقراء الشعر الذي يتحدث عن رثاء الأخ، نجده يتحدث عن موضوع واحد مستقل ألا وهو الرثاء، لا يشترك معه غرض آخر، من أول القصيدة إلى نهايتها.

فالوحدة الموضوعية، أو الوحدة المعنوية كما يسميها طه حسين، تتحقق في الشعر الجاهلي في أجزاء من القصائد الطويلة في الموضوع الواحد، وتتحقق في الشعر الذي يسرد قصة أو يصور أحداثاً بعينها، وتتحقق في كثير من القصائد القصار، وقصائد الغزل وقصائد الرثاء (4).

(1) هلال، محمد غنيمي، (1973)، النقد الأدبي الحديث، ط1، القاهرة، مصر، ص208.

(2) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص124.

(3) مخيمر، رثاء الأبناء، ص86.

(4) حسين، طه، (1937)، حديث الأربعاء، مطبعة الحلبي، القاهرة، مصر، ص30.

4.5 الوحدة العضوية:

عرف محمدغني هلال الوحدة العضوية بقوله : "... ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع، وو حدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور، والأفكار، ترتيباً تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً، حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفة فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر"⁽¹⁾.

فالشاعر الذي يرثي أخاه لا يخضع إلا لمشاعر الحزن والألم، وتكون أحاسيسه وجوارحه موجهة نحو المأساة التي يعيشها، وبما أنه صادق مع نفسه ومع موضوعه، لا بد أن قصيدته تثير لونا واحداً من المشاعر المترابطة، يضمها خيط واحد، دون أن تثير أشتاتاً من المشاعر، كما هو حال القصيدة ذات الموضوعات المتعددة، لأن كل موضوع فيها له مشاعر خاصة، وبواعث مختلفة، فما يثيره الغزل، يختلف عما يثيره المدح أو الفخر أو الهجاء، وهكذا ومن هنا أرى أن قصيدة الرثاء قد حققت الأبعاد الثلاثة الضرورية، لميلاد الوحدة العضوية⁽²⁾؛ وهو وحدة الأحاسيس، ووحدة التعبير، ووحدة الأثر"⁽³⁾.

"وأما المقطوعات الشعرية، فلا حاجة للتدليل على توفر الوحدة العضوية فيها لأن من طبيعتها ألا تستوعب وحدة واحدة من المشاعر"⁽⁴⁾.

ورأينا في القصائد الطوال وحدة عضوية ممثلة في أكمل صورها، فالمشاعر مترابطة والحركة النفسية متداخلة في بعضها البعض، والتسلسل في الأفكار واضح فيها، وتترج مراحلها من مرحلة إلى مرحلة، دون خلل في نظامها، فهي تنتقل من مرحلة البكاء والحزن إلى مرحلة الافتخار أو الثأر أو المدح... إلخ.

(1) هلال، النقد الأدبي الحديث، ص65.

(2) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص134.

(3) صالح، رثاء الأبناء، ص79.

(4) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص134.

فالخنساء ترثي أخاها صخراً، إذ تبدأ قصيدتها بالطلب من عينيها بالجود بالدموع والبكاء بعد فقد أخيها فتقول (1):

يَا عَيْنِ جُودِي بِالْدمُوعِ الْهُمُولِ وَابْكِ لِصَخْرٍ بِالْدمُوعِ الْهُجُولِ
لَا تَخْذُلِينِي حِينَ جَدَّ الْبُكَاءِ فَلَيْسَ ذَا يَا عَيْنِ حِينَ الْخُذُولِ

ثم تستمر الخنساء بالبكاء وتنتقل إلى ذكر ر شمائل أخيها صخر وتمدحه بالكرم، وكيف أنه مأوى للأرامل والجيران، وذلك إذ تقول (2):

نَعَمْ أَخُو الشَّتْوَةِ حَلَّتْ بِهِ أَرَامِلُ الْحَيِّ غَدَاةَ الْبَلِيلِ
أَتَيْنَهُ مُعْتَصِمَاتٍ بِهِ يُعَلِّنُ بِالْدَّعْوَى نِدَاءَ الْأَلِيلِ

ثم تصف أخاها بحسن الوجه دلالة على المعروف والكرم بقولها (3):

دَلَّ عَلَى مَعْرُوفِهِ وَجْهُهُ بُورِكَ هَذَا هَادِيًا مِنْ دَلِيلِ
لَا يَقْصُرُ الْغَضُّ عَنْ نَفْسِهِ بَلْ عِنْدَهُ مَنْ نَابَهُ فِي فُضُولِ

وكذلك تصف أخاها صخراً بالحكمة والدهاء والذكاء في حل الخصومات بقولها (4):

وَرَأْيُهُ حُكْمٌ وَفِي قَوْلِهِ مَوَاعِظٌ يُذْهِبُ دَاءَ الْغَلِيلِ

ثم تذكر الخنساء ترك أخيها صخر لها وحالها بعده إذ تقول (5):

تَرَكْتَنِي وَسَطَ بَنِي عِلَّةٍ كَأَنَّنِي بَعْدَكَ فِيهِمْ نَقِيلُ

ثم تنهي الخنساء قصيدتها بمدح أخاها بالشجاعة والفروسية في قولها (6):

وَيْلُ أُمِّهِ مُسْعِرِ حَرْبٍ إِذَا أَلْقَى فِيهَا فَارِسًا ذَا شَلِيلِ
تَشَقَّى بِهِ الْكُومُ لَدَى قَدْرِهِ وَالنَّابُ وَالْمُصْعِيَّةُ الْخَنْشَلِيلِ

(1) الخنساء، الديوان، ص306.

(2) المصدر نفسه، ص307؛ البليل: الريح الممطرة الباردة؛ الأليل: الثكل والأنين.

(3) المصدر نفسه، ص308.

(4) المصدر نفسه، ص309، الغليل: حرارة تكون في الجوف من العطش.

(5) المصدر نفسه، ص310.

(6) المصدر نفسه، ص312؛ الخنشليل: الغلالة التي تحت الدرع من ثوب أو غيره.

"يتصف النص بوحدة البيت المستقل بوصفه كينونة لغوية متكاملة يمكن أن يستشهد بها بفكرة تدل عليها من غير إخلال بالمضمون الأحادي الذي يتخلل البيت، ويمكن ترتيب النص ترتيباً مغايراً للديوان تقديماً وتأخيراً في الأبيات"⁽¹⁾. ومن القصائد التي تحققت فيها الوحدة العضوية قصيدة المهلهل في أخيه كليب، ومتمم في أخيه مالك، ودريد بن الصمة في أخيه معبد وهناك كثير من القصائد التي تحدثت عن صورة الأخ في الرثاء وقد تحققت فيها وحدة الغرض المتمثلة في الرثاء، ووحدة المشاعر، ووحدة التعبير ووحدة الأثر، فالمشاعر مترابطة، والحركة الداخلية النفسية متداخلة، مما أوجد الوحدة العضوية في هذه القصائد.

5.5 الألفاظ والتراكيب:

يقول القرطاجني: "وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل، مبكي المعاني، مثيراً للتباريح، وأن يكون بألفاظ مألوفة، سهلة في وزن مناسب ملذوذ، وأن يستفتح فيه بالدلالة على المقصد"⁽²⁾.

وأول ما يلاحظ في القصائد التي تحدثت عن صورة الأخ أنها جاءت "بوحدة التصور العام المجسدة بوحدة الأسلوب جعلت الرثاء يتعاورون على جملة من الألفاظ والتراكيب كتعاورهم على جملة من المعاني تماماً، فالرثاء تقاسموا ألفاظ الألم والحسرة والبكاء والندب والتأبين وغير ذلك من الألفاظ والتراكيب تبعاً للموضوعات"⁽³⁾.

(1) أحمد، شريف بشير، (2003)، الخنساء ونموذجية صخر، مجلة الجذور، العدد 15، النادي الأدبي، جدة، السعودية، 142.

(2) القرطاجني، أبو الحسن حازم (ت: 684هـ)، (د.ت)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد بن الحبيب بن فوجة، دار الكتب الشرقية، القاهرة، مصر، ص351.

(3) الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، ص239.

وهذا ما نجده في ألفاظ الرثاء التي تدلّث عن الأخ وفقده وما يولده في النفس من مشاعر الحزن والفراق، فتخرج لنا ألفاظ معبرة عن مشاعر الأخ تجاه أخيه.

هناك عدة ألفاظ اشترك فيها الشعراء عندما تحدثوا عن صورة الأخ حاولت جمع البعض منها وهي ألفاظ الحزن والبكاء والحسرة : (ليبيكك، الدمع، العين، بكى، أسي، لهف، حسرتي، أخضل، جودي، سربال، مهراق، شجا، الشجو). وألفاظ دالة على الموت مثل : "أرملة، الموت، الرزايا، القتل، أودى، الجزع، حنظل، أفجعتني، المنايا، قتلنا، بؤس، مَهْلَكه، الحتف، عفت، اليتامى، النعي، العقيرة".

وألفاظ دالة على الدعاء والسقيا مثل: "لا تبعد، جاد، سقى، صوب الغمام...". وألفاظ دالة على الكرم مثل : "ضخم الدسيعة، الندى، الشرب، جميل المحيا، القرى السابئ الزق، غياث، متحلب الكفين... وغيرها". وهناك ألفاظ وصفوا بها تدل على الإبل، منها: "الفنيق، الفحل، البازل، الغدير، وناقة سناء، عنتريس، الشول، الناجية، الصيعرية، هوجاء..." وهناك الكثير من الألفاظ الدالة على القيم الإنسانية والاجتماعية والخلقية يضيق المقام بذكرها . وهي من الكثرة ما يجعلها ساكنة في كل بيت من أبيات قصيدة أو مقطوعة؛ مثال ذلك قول أم الصريح في ذكر لفظ الموت⁽¹⁾:

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرَّوْا لَكَانُوا أَعْزَةً وَلَكِنْ رَأَوْا صَبْرًا عَلَى (الموت) أَكْرَمًا

وذكر المهلهل لفظ القتل عندما ذكر أخاه كليب بقوله⁽²⁾:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلِّيبٍ حُلَامٌ حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ هَمَّامٍ

وذكرت الخنساء في قصائدها كثيراً من ألفاظ الحزن والبكاء والتوجع لفقد الإخوان بقولها⁽³⁾:

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكَ مِغْزَارٍ وَابْكِي لَصَخَرٍ بِدَمْعٍ مِنْكَ مِذْرَارٍ

(1) المبرد، التعازي والمرثي، ص26.

(2) المهلهل، الديوان، ص76.

(3) الخنساء، الديوان، ص290.

وكذلك قولها⁽¹⁾:

ابكي أَخَاكَ إِذَا جَاوَرَتِهِمْ سَحَرًا جُودِي عَلَيْهِ بِدَمْعٍ غَيْرِ مَنْزُوفٍ
وكذلك من الألفاظ المتوفرة في الشعر الذي يحكي عن صورة الأخ في الشعر
الجاهلي الطلب بعدم البعد من ذلك قول الخنساء⁽²⁾:

فَلَا يَبْعُدُنْ قَبْرُ تَضَمَّنَ شَخْصَةً وَجَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ وَاكِفَةِ الْقَطْرِ

وكذلك استخدم الشعراء ألفاظاً تدل على المبالغة مثل الخنساء وعند الفارعة بنت شداد مثل: حَالَل، نَقَّاض، طَلَّاع، حَمَّال... فالألفاظ في هذه النماذج دليل على أن الشعراء لم يتكلفوا في التعبير عما يختلج في صدورهم من معاني التفجع والألم والتلف والحسرة، فخرجت ألفاظهم لنا بشكل سلس وواضح، وجاءت لتعبر عن المعنى بالشكل المطلوب، فهذا دلالة على أنه يصدر عن طبع أصيل وفطرة سليمة لديهم.

6.5 التكرار:

التكرار من الأشياء المهمة في القصائد التي تحدثت عن صورة الأخ، وهي تلفت النظر لكثرة ورودها.

وأما مفهوم التكرار في الاصطلاح : فهو إعادة معنى أو لفظ بعينه، وترديده أكثر من مرة⁽³⁾.

أما النقاد والأدباء فإنهم يرون أن : "التكرار في حقيقته إلحاح على جهة هامة من العبارة، يُعْزِبُهَا الشاعر أكثر من عنايته بسواها ... فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها..."⁽⁴⁾.

(1) الخنساء، الديوان، ص170.

(2) المصدر نفسه، ص76.

(3) الهليل، عبد الرحمن بن عثمان، (1419هـ) التكرار في شعر الخنساء، ط1، دار المؤيد، الرياض، السعودية، ص17.

(4) الملائكة، نازك، (1978) قضايا الشعر المعاصر، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص276.

ولهذا قال ابن رشيق القيرواني عنه : "وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجیعة، وشدة القرحة، التي يجدها المتفجع، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد"(1).

والتكرار نوعان(2):

1. تكرار أشطر شعرية كاملة، وتكرار عبارات، وتكرار ألفاظ وحروف.
2. تكرار معانٍ.

وتقول بشرى الخطيب : إن التكرار له أهمية كبيرة في شعر الرثاء، فيأتي به الشاعر ليؤكد ما في نفسه من حزن وأسى ولوعة، أو للتأكيد على طلب الثأر، أو ليؤكد الصفات الخلقية لدى أخيه المرثي، ويبين أهمية فقده بالنسبة له وللمجتمع الذي حوله(3). ومن أجل ذلك "قل أن نقرأ رثاء لا تظهر فيه خصیصة التكرار"(4). وقد يكون هذا التكرار أحد آثار الحزن الشديدة في الراثي، والتي تجعله يقول الشعر فلا يدري ما قال أو سيقول بسبب تأثير المصاب عليه(5).

1. التكرار اللفظي:

التكرار اللفظي قد يكون بتكرار اسم الأخ عدة مرات، أو تكرار ألفاظ مثل (البكاء، ولهف، والقبر، والبعد، والدهر.) وغيرها من الألفاظ. مثال ذلك تكرار الخنساء اسم أخيها صخر محاولة تسليط الضوء على أكثر جوانب هذه الشخصية؛ فنظلت شاغلنا به أكثر من مرة، وفي كل مرة يقرع هذا اللفظ أسماعنا بإضافة جديدة فنقول(6):

وإنَّ صَخْرًا لَكَا فِينَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارَ
وإنَّ صَخْرًا لَمَقْدَامُ إِذَا رَكِبُوا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا جَاعُوا لَعَقَارَ

(1) القيرواني، العمدة، ج2، ص78.

(2) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص178.

(3) الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، ص237.

(4) الهليل، التكرار في شعر الخنساء، ص44.

(5) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص44.

(6) الخنساء، الديوان، ص385.

ومن الألفاظ المكررة قول متمم بن نويرة يكرر اسم أخيه مالك مع شيء من الألم والحزن، فيقول⁽¹⁾:

فَعَيْنِي هَلَّا تَبْكِيَانِ لِمَالِكٍ إِذَا أَذْرَتِ الرِّيحُ الْكَنِيفَ الْمُرْفَعَا
وَلِلشَّرْبِ فَابْكِي مَالِكَا وَلِبُهِمَةِ شَدِيدِ نَوَاحِيهِ عَلَى مَنْ تَشَجَّعَا

وقد وردت عدة من الألفاظ التي تحدثت عن الإخوة مكررة لا مجال لحصرها هنا، ولا تقتصر على ما ذكرنا.

2. تكرار حرف:

وهو نوع من أنواع التكرار الشائع في شعرنا العربي واختلف في قيمته الفنية، ومزيبته الدلالية فهناك من يرى أنه : "أبسط أنواع التكرار، وأقلها أهمية في الدلالة، وقد يلجأ إليه الشاعر بدوافع شعورية لتعزيز الإيقاع، في محاولة منه لمحاكاة الحدث الذي يتناوله، وبما جاء للشاعر عفواً أو دون وعي منه"⁽²⁾.

وهناك من يرى أن : "لتكرير الحرف في الكلمة مزية سمعية، وأخرى فكرية الأولى ترجع إلى موسيقاها، والثانية إلى معناها"⁽³⁾.

وفي رأيي أن الحد كم على تكرار الحرف في قيمته ومزيبته، لا بد أن يكون من خلال الدراسة والتطبيق.

فمن الحروف المكررة في شعر الخنساء : حرف المد (الألف) وقد تكرر هذه الحروف كثيراً في قصائدها وذلك في مثل قولها⁽⁴⁾:

لَمَّا فَقَدَنَ أَخَا النَّدَى وَالْخَيْرَ وَالشَّيْمَ الصَّوَالِحُ
وَالْجُودَ، وَالْأَيْدِي الطَّوَا لِ الْمُسْتَقِيمَاتِ السَّوَامِحِ

(1) الضبي، المفضليات، ص266.

(2) الهليل، التكرار في شعر الخنساء، ص70

(3) السيد، عز الدين علي، (د.ب.) لتكرير بين المثير والتأثير، ط 2، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ص12.

(4) الخنساء، الديوان، ص338.

ونلاحظ تكرار (ألفي) شعرها، وقد أكثرت من استخدامه (للدلالة على ما لا يمكن أن يعود)⁽¹⁾ ومثال ذلك⁽²⁾:

أَلَا اخْتَارَ مِرْدَاسًا عَلَى النَّاسِ قَاتِلُهُ وَلَوْ عَادَهُ كَنَانَتُهُ وَحَلَالَتُهُ
وَقُلْنَ: أَلَا هَلْ مِنْ شِفَاءٍ يَنَالُهُ وَقَدْ مَنَعَ الشِّفَاءَ مَنْ هُوَ قَاتِلُهُ

وكذلك تكرار صيغة الشرط (إن، وإذا) عدة مرات في قصيدة متمم في رثاء أخيه مالك⁽³⁾:

وَإِنْ تَلَقَّاهُ فِي الشَّرْبِ لَا تَلَقَ فَاحِشًا عَلَى الْكَاسِ ذَا قَاذُورَةٍ مُتْرَبَعًا
وَإِنْ ضَرَسَ الْغَزْوُ الرِّجَالَ رَأَيْتُهُ أَخَا الْحَرْبِ صَدَقًا فِي اللَّقَاءِ سَمِيدَعًا
ونجد تكرار الحروف نفسها (إن، وإذا) في قصيدة الأبيرد في رثاء أخيه أربد، ومن تكرار الحروف تكرار حروف النفي (لا، ليس، لم) كما ورد في مرثية أعشى باهلة لأخيه المنتشر لإثبات الكرم من أخيه ، وإلى جانب هذه الحروف حروف أخرى تتكرر في شعر صورة الأخ وقد اقتصرنا على ما تقدم، لأن المراد التمثيل لا الحصر.

3. تكرار تركيب:

1. تكرار جمل أو عبارات:

فمن العبارات المتكررة عند الخنساء في شعرها قولها "وإذ فينا" كما في قولها، ترثي أخاها معاوية⁽⁴⁾:

وَإِذْ تَتَحَاكَمُ الرُّؤْسَاءُ فِينَا لَدَى أَبْيَاتِنَا، وَذَوُو الْحَقُوقِ
وَإِذْ فِينَا فَوَارِسُ كُلِّ هَيْجَا إِذَا فَزِعُوا، وَفَتَيَانِ الْخُرُوقِ
وَإِذْ فِينَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى أَدْمَاءَ كَالْجَمَلِ الْفَنِيقِ

(1) الهليل، التكرار في شعر الخنساء، ص72.

(2) المرجع نفسه، ص247-248، جمع (الكنة) وهي امرأة الأخ، ويقال امرأة الابن.

(3) الضبي، المفضليات، ص266.

(4) الخنساء، الديوان، ص68-69.

ومن العبارات أو الجمل المكررة أيضاً " لهفي على صخر " كما في قولها⁽¹⁾:

لَهْفِي عَلَى صَخْرٍ فَإِنِّي أَرَى لَهُ نَوَافِلَ مِنْ مَعْرُوفِهِ قَدْ تَوَلَّتْ
لَهْفِي عَلَى صَخْرٍ لَقَدْ كَانَ عَصْمَةً لِمَوْلَاهُ إِذْ نَعَلُ بِمَوْلَاهُ زَلَّتْ

فكررتها الشاعرة لتدل على عمق الحزن والألم لفراق أخيها.

2. تكرار شطر بيت:

وهذا كثير في شعر الشعراء خاصة عند المهلهل والخنساء ولبلى الأخيائية، ويقول مصطفى الشوري في ذلك التكرار (نلاحظ ظاهرة التكرار التي تتردد دائماً بين الحين والحين، حتى لقد تقع في صدور الأبيات كميزة من ميزات الأسلوب الرثائي بجانب كونها ضرباً من اللولولة والندب المثير، ويبدو أنها تنتم على أساس أنها من موروث طقوسي قديم، وبجانب ذلك كله ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظروف الشاعر النفسية وطبيعة حياته البدوية، ولا شك أنه كان يلاحظ أن التكرار يثير الحماسة في صدور المحيطين به ويستفزهم للقتال، ومن ثم استعمله الشاعر⁽²⁾).

ومن ذلك قول المهلهل بن ربيعة بعد مقتل أخيه كليب⁽³⁾:

ذَهَبَ الصُّلْحُ أَوْ تَرَدُّوا كُلِّيًّا أَوْ تَحَلَّوْا عَلَى الْحُكُومَةِ حَلَا
ذَهَبَ الصُّلْحُ أَوْ تَرَدُّوا كُلِّيًّا أَوْ أَذِيقُ الْغَدَاةَ شَيِّبَانَ ثَكَلَا
ذَهَبَ الصُّلْحُ أَوْ تَرَدُّوا كُلِّيًّا أَوْ تَتَالُ الْعِدَاةُ هَوْنًا وَذَلَا

ويقول أيضاً⁽⁴⁾:

أَتَغْدُوا يَا كُلَيْبُ مَعِيَ إِذَا مَا جَبَانُ الْقَوْمِ أَنْجَاهُ الْفِرَارُ
أَتَغْدُوا يَا كُلَيْبُ مَعِيَ إِذَا مَا حُلُوقُ الْقَوْمِ يَشْحَذُهَا الشَّفَارُ

وفي قصيدة للمهلهل يرثي فيها أخاه كليباً نجد التكرار يعبر عن الحالة النفسية التي يمر بها الشاعر بقوله⁽⁵⁾:

(1) الخنساء، الديوان، ص416.

(2) الشوري، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص151.

(3) المهلهل، الديوان، ص63.

(4) المصدر نفسه، ص31.

(5) المصدر نفسه، ص40-41.

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ إِذَا رَجَفَ الْعَضَاةُ مِنَ الدَّبُورِ
 عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ إِذَا طُرِدَ الْيَتِيمُ عَنِ الْجُورِ
 مكرراً قوله عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ ثلاث عشرة مرة في القصيدة .
 ومن ذلك التكرار الذي يبين حالة الشاعر النفسية قول ليلي الأخيلية ترثي أخاها⁽¹⁾:
 لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْمَرْءُ أَبْكِي لِفَقْدِهِ وَيَكْثُرُ تَسْهِيدِي لَهُ لَا أَوَائِلُ
 لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْمَرْءُ أَبْكِي لِفَقْدِهِ إِذَا كَثُرَتْ بِالْمَلْحَمِينَ التَّلَاتِلُ
 وقد يلجأ الشاعر إلى التكرار من أجل أن يربط به بين بيتين فيزيد من وحدة
 أجزاء الصورة ويؤكد أيضاً حدة الشعور، وذلك نراه في قصيدة متمم بن نويرة يرثي
 فيها أخاه مالكا فهو يقول⁽²⁾:

لَقَدْ لَأْمَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لَتَذَرَفِ الدُّمُوعِ السَّوَاغِ
 فَقَالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالذَّكَادِكِ
 أَمِنْ أَجْلِ قَبْرِ فِي الْمَلَأِ أَنْتَ نَائِحُ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ أَوْ عَلَى كُلِّ هَالِكِ
 فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى فَدَعْنِي، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وكذلك نجد التكرار في بعض الأساليب عند الشعراء ومن هذه الأساليب
 (توجيه الخطاب للميت كأنه حي يسمع)، ومرجع ذلك إما لأن الشاعر لا يصدق أن
 فقيده مات، وإما لأنه لم يزل يشعر به مع خاطره وقد يظن أن هذه الظاهرة لا تقوم
 إلا في حالة قرب العهد بالميت⁽³⁾. ولكننا نسمع المهلهل يخاطب أخاه بعد أن بعد
 العهد به وطال الفراق، فيقول⁽⁴⁾:

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلِّبُ الْمَجْلِسُ
 وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبِسُوا

(1) الشوري، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص153.

(2) المرجع نفسه، ص155.

(3) المرجع نفسه، ص156.

(4) المهلهل، الديوان، ص46.

وتخاطب الخنساء أخاها فتقول⁽¹⁾:

أَلَا يَا صَخْرُ إِنِّ أَبْكَيْتَ عَيْنِي لَقَدْ أَضْحَكْتَنِي دَهْرًا طَوِيلًا

وكذلك خاطب الشعراء أعينهم ومثال ذلك نجده عند الخنساء ومتمم فقول

الخنساء:

أَلَا يَا عَيْنِ اسْعِدِينِي لَرَيْبِ الدَّهْرِ وَالزَّمَنِ الْغَضُوضِ

ومن الأساليب المتكررة في الشعر الذي يتحدث عن صور الأخ أسلوب النداء

ومثال ذلك قول فاطمة بنت الأحجم، تقول:

إِخْوَتِي لَا تَبْعُدُوا وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعُدُوا

فقولها " إخواني " أي يا إخواني.

وكذلك أسلوب النداء نجده عند الخنساء والمهلهل وغيرهم من الشعراء.

ومن الأساليب التي تكرر كثيراً، أسلوب الدعاء والطلب، وقد ذكرناها في

الفصول الماضية.

ومن الأساليب التي تطرق لها الشعراء أسلوب الحوار، فهو يستدرج السامع؛

فيدخله في جو الحدث إدخالاً لطيفاً؛ لاعتماده على الحكاية التي فيها، قال،

وقلت، وسأل، وسألت، وهي ألفاظ قصصية يطرب السمع إليها، وتتشوق النفوس إلى

معرفة ما وراءها من أنباء⁽²⁾.

تقول عمرة أخت عمرو ذي الكلب⁽³⁾:

سَأَلْتُ بَعْمُرَ أَخِي صُحْبَتُهُ فَأَفْظَعَنِي حِينَ رَدَّوْا السُّؤَالَ

فَقَالُوا قَتَلْنَاهُ فِي غَارَةٍ بِأَيَّةِ أَنْ قَدْ وَرِثْنَا النَّبَالَ

ومن الأساليب التي وردت مكررة عند الشعراء تكرار أسلوب الاستفهام،

فالشعراء يطرحون أسئلة كثيرة، وغالبها أو كلها لا تحتاج إلى إجابة، لأنَّ الشعراء

(1) الخنساء، الديوان، ص227.

(2) الصباري، فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، ص157.

(3) مارديني، شواعر الجاهلية، ص232.

يعرفون إجابتها من جهة، ومن جهة أخرى فهم يائسون من الجواب . ومثال ذلك نجده عند الخنساء في رثائها لأخيها صخر فتقول⁽¹⁾:

فَمَنْ لِقَرَى الْأَضْيَافِ بَعْدَكَ إِنْ هُمْ
فِنَاءَكَ حَلُّوا ثُمَّ نَادَوْا، فَأَسْمَعُوا

وكذلك عندما رأت غزارة دموعها تساءلت مستفهمة عن سبب ذلك فقالت⁽²⁾:

مَا هَاجَ حَزْنُكَ؟ أَمْ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أَمْ ذَرَّقَتْ؟ أَمْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

وتقول أم عمرة في رثاء أخيها ربيعة بن مكرم⁽³⁾:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمْعُ مِهْرَاقُ سَحَا فَلَ عَازِبُ عَنْهَا وَلَا رَاقِي

فقد ذكرنا بعض أدوات التكرار وبعض الشواهد عليها على سبيل التمثيل لا

الحصر.

7.5 الصورة:

شغل تحديد مفهوم الصورة وأركانها ووظيفتها، النقاد القدماء والمحدثين معاً، وما زال البحث مستمراً في ميدان دراسة الصورة، وسوف نتطرق إلى ما قاله القدماء عن الصورة، فالجاحظ يعد أول واضع لأساس البيان العربي، وأول من أشار إلى توضيح مفهوم الصورة وإبراز قيمتها الفنية في معرض حديثه عن اللفظ والمعنى، إذ يقول: إنما الشعر صناعة، و ضرب من النسج، وجنس من التصوير"⁽⁴⁾.

وتحدث القبيرواني عن حسن الوصف الذي يؤدي إلى حسن الصورة، وقال :
"أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيناً للسامع، فحسن الوصف عنده هو حسن للصورة التي تمثل اللفظ، والمعنى أي كالجسد والروح"⁽⁵⁾.

(1) الخنساء، الديوان، ص415.

(2) المصدر نفسه، ص378.

(3) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص279.

(4) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: 255هـ)، (1965) كتاب الحيوان، ط 2، تحقيق

عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر: 132/3.

(5) القبيرواني، العمدة، 24/1.

ومما لا شك فيه أن عبدالقاهر الجرجاني هو أبرز النقاد القدماء الذين أعطوا الصورة مفهوماً واضحاً تجلّى قياساً للمعلوم بالعقل المرئي بالبصر في كتابيه : (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) هو أول من رسخ مفهوم الدلالة الاصطلاحية للصورة، وهي عنده الفروق التي تميز معنى ومعنى، كتمييز خاتم عن خاتم، وجسم إنسان عن إنسان آخر، وسوار من سوار، ووضع في كتابيه كذلك الوسائل والأساليب التي تجعل الصورة حسنة مقبولة، حتى أنه شبه صياغة الكلام بصياغة المعان النفسية⁽¹⁾، يقول: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار"⁽²⁾.

وقال حازم القرطاجني عن التصوير أو الصورة: "إن الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان ضمن مبدئ المعاني، فالشاعر يولد الصور من الألفاظ"⁽³⁾.

ومن الواضح أن نقادنا القدماء، قد ألبسوا الصورة رؤية جديدة هي من خلق التراث النقدي الأصل، غير أن النقد العربي الحديث ظل ينقصه تحديد المصطلح الجامع للصورة، وظلت نظراتهم قائمة على عنصرين رئيسيين هما : (اللفظ والمعنى) على رغم مما قاله النقاد القدماء في مباحث البلاغة بعامة، وعلم البيان بخاصة⁽⁴⁾.

الصورة من وجهة نظر المحدثين:

فاضت الدراسات النقدية الحديثة بتناول مصطلح الصورة وتحديد مفهومها ووظيفتها، فمن النقد من درسها على أنها فن، ومنهم من درسها على أنها علم، وكل أديبنا قد له وجهة نظر عن الصورة الشعرية فقال عنها إحسان عباس : "الصورة

(1) المسيعدين، فتحي، (2007)، شعر الطرماح بن حكيم الطائي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، ص85.

(2) الجرجاني، عبدالقاهر (ت: 471هـ)، (1998) دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق : محمد عبده الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص322.

(3) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص18.

(4) المسيعدين، شعر الطرماح بن حكيم الطائي، ص86.

الشعرية ليست شيئاً جديداً فإن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد حتى اليوم، ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في طريقة استخدامه للصورة⁽¹⁾.

واهتم الشعراء العرب في الصورة الشعرية، وعدوها ركناً أساسياً من أركان القصيدة، يقول جابر عصفور: "باعتبارها الجوهر الثابت والدائم في الشعر، وقد تتغير مفاهيم الشعر ونظرياته، فتتغير بالتالي مفاهيم الصورة الفنية، ونظرياتها، ولكن الاهتمام بها يظل قائماً ما دام هناك شعراء مبدعون"⁽²⁾.

أما إيليا حاوي فتناول الصورة على أنها: "الوجه الأوضح للوصف ومن خلالها يرسم الشاعر المعنى الذي في ذهنه بصورة رآها في بصره، لذا يرى أن هذا الوصف هو وصف نقلي تظهر براعة الشاعر في اكتشافها، والصورة الشعرية تخطف في حدس الشاعر المبدع خلال لحظة فائقة تنير معالم نفسيته جميعها"⁽³⁾.

ويقول أحمد يعقوب: "ويقصد بالصورة الشعرية كل الصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات، والتي يستعين بها الشاعر لتوصيل فكرته"⁽⁴⁾ والصورة الشعرية "هي الوعاء الذي يحاول بها الأديب، نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه"⁽⁵⁾.

وسوف نتحدث عن الصورة الشعرية التي تتعلق بصورة الأخ الذي غيبته يد المنية والصور المتعلقة بها ويوضح حسين جمعة هذه الصور بقوله: "فحين يكون

(1) عباس، إحسان، (1959) فن الشعر، ط 2، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن: ص193.

(2) عصفور، جابر، (1992) الصورة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط 3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان: ص9.

(3) حاوي، إيليا، (1959)، فن الوصف وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص42.

(4) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص139.

(5) الشايب، أحمد، (1973) أصول النقد الأدبي، ط 8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر: ص242.

الموضوع في العزاء والخلود تجنح الصور نحو التفاؤل والاستبشار، وإن يكن الموضوع في الندب والبكاء، فإن الصور تتسم بالقتامة والتهويل⁽¹⁾.

أول الصور التي سوف نتحدث عنها صورة الموت أو المنية، فقد تحدثت عنها الشعراء كثيراً وصوروها بعدة صور، ومن هذه الصور تشبيه الموت كأنه إنسان يأتي ويزور ويطرق الباب، من ذلك قول الخنساء⁽²⁾:

مَا لِلْمَنَايَا تُنَادِينَا وَتَطْرُقُنَا
كَأَنَّنَا أَبَدًا نُحْتَرُّ بِالْفَاسِ

وكذلك يصور أعشى باهلة الموت بسبيل يسلكه الناس، عندما يرثي أخاه بقوله⁽³⁾:

فَإِذْ سَلَكَتْ سَبِيلًا كُنْتَ تَسْلُكُهَا
فَإِذْ هَبَّ فَلَا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ مُنْتَشِرًا

كذلك صورت الخنساء الموت بالسهم التي تصيب من حانت منيته، فتقول⁽⁴⁾:

لَكِنْ سِهَامُ الْمَنَايَا مِنْ نُصْبِنَ لَهُ
لَمْ يُنْجِهْ طَبَّ ذِي طَبٍّ وَلَا رَاقِي

وصورة الموت والدهر قرينتان، فكل منهما يفرق بين الأحباب، فالخنساء تشبه الدهر بشيء يتحرك ذهاباً وإياباً فهو مريب، تقول⁽⁵⁾:

يَا عَيْنُ مَا لَكَ لَا تَبْكِينَ تِسْكَابًا
إِذَا رَابَ دَهْرٌ وَكَانَ الدَّهْرُ رِيَابًا

صورة الأخ الفقيد:

يكون الأخ - غالباً - أكثر معايشة لأخيه؛ لتقارب الأعمار، أو ثقافتهما إن كانا توأمين، أو أبناء ضرائر؛ من أجل هذا نجد الأخ إذا فقد أخاه يذكر أيام صباه معه، ومرحلة طفولته التي يكون فيها الصغير كالغصن نماء ونضارة؛ تقول صفية الباهلية⁽⁶⁾:

كُنَّا كَغَضِيْنٍ فِي جُرْثُومَةٍ سَمَوَا
حِينَ بَأَحْسَنَ مَا تَسْمُو لَهُ الشَّجَرُ

(1) جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص211.

(2) الخنساء، الديوان، ص223.

(3) القرشي، جمهرة أشعار العرب، 721/2.

(4) الخنساء، الديوان، ص305.

(5) المصدر نفسه، ص148.

(6) غريب، شاعرات العرب في الجاهلية، ص187.

حَتَّى إِذَا قِيلَ قَدْ طَالَتْ فُرُوعُهُمَا وَطَابَ قَنَواهُمَا وَاسْتَنْظَرَ الثَّمَرُ
أَخْنَى عَلَى وَاحِدِي رَيْبُ الزَّمَانِ وَلَا يُبْقِي الزَّمَانُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَذَرُ
تمثل الصورة الأخ وأخته معاً في مرحلة عمرية واحدة، تعبر عنها الأخت
بـ"غصنين" نابتين من أصل واحد؛ أي من أسرة واحدة الأب والأم، ويستمر نموُّهما
على أحسن حال، وأرغد عيش، حتى إذا أصبحا في مرحلة الشباب عطاءً وبذلاً،
مال الزَّمانُ بقوةٍ مدمرة على أحدهما فأهلكه.

ويُشبه الأخ بالأسد، كما شبهت رائطة بنت شيزم أخوها بالأسد ين الذين
يحميان الحمى، ويدافعان عن عرينيهما، فهي تقول(1):

لهفي على الأخوين كـ (الأسدين) مسعود وحاتم
والصورة نفسها لدى عمرة أخت عمرو ذي الكلب فهي تقول(2):

فَأَقْسِمُ يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهَاكَ إِذْنُ نَبَّهَا مِنْكَ دَاءٌ غَضَالًا
إِذْنُ نَبَّهَا (لَيْثٌ) عَرِيْسَةٌ مُفِيدًا مُفِيْتًا نَفُوسًا وَمَالًا

ومن التشبيه ما جاء في قول جنوب أخت عمرو وذي الكلب تمدح أخاها(3):
تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشْيَ الْعَذَارَى عَلَيَّهِنَّ الْجَلَابِيْبُ
ونلاحظ كذلك التشبيه التمثيلي عند متمم بن نويرة في وصف أخيه مالك بالكرم
فيقول(4):

تَرَاهُ كَصَدْرِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى إِذَا لَمْ يَجِدْ عِنْدَ امْرِئِ السُّوءِ مَطْمَعًا
وقد أفاض الشعراء في وصف الأخ بالكرم والشجاعة والنخوة، ومن ذلك قول
العوراء بنت سبيع لأخيها عبدالله تصفه بالعفة والكرم وعدم البخل، فتبدو صورته
أكثر جذباً وجمالاً؛ تقول(5):

(1) ابن منقذ، المنازل والديار، ص448.

(2) مارديني، شواعر الجاهلية، ص233.

(3) المرجع نفسه.

(4) الضبي، المفضليات، ص265.

(5) غريب، شاعرات العرب، ص285.

أَبْكِي لِعَبْدِ اللَّهِ إِذْ حُشَّتْ قُبَيْلُ الصُّبْحِ نَارُهُ
طَيَّانَ طَاوِي الكَشْحِ لَا يُرْخَى لِمَظْلَمَةٍ إِزَارُهُ
يَعْصِي البَخِيلَ إِذَا أَرَادَ المَجْدَ مَخْلُوعاً عِذَارُهُ

فقد استعارت الإزار، للدلالة على عِفَّتِهِ، وأرادت بـ "يعصي البخيل" مخالفته السَّجِيَّة، وتتسع هذه الصورة عند مِيَّة بنت ضرار الضبية، لتجعل من صورة أخيها صورة رجل مهيب لا يجرؤ أحد على الكلام المعيب في مجلسه؛ فتقول⁽¹⁾
لَا تَعْرِفُ الكَلِمُ العَوْرَاءُ مَجْلِسَهُ وَلَا يَذُوقُ طَعَاماً وَهُوَ مَوْتُورٌ
وكذلك نجد صورة الشجاعة والكرامة عند المهلهل عندما يصف أخاه كليياً بالمهابة وخوف الناس منه إذ يقول⁽²⁾:

وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبَسُوا
وكذلك يصف أعشى باهلة أخاه المنتشر بالشجاعة والكرم فيقول⁽³⁾:
أَخُو شُرُوبٍ وَمَكْسَابٍ إِذَا عَدَمُوا وَفِي المَخَافَةِ مِنْهُ الجَدُّ والحِذْرُ

فيستخدم صيغ المبالغة (شروب ومكساب) في وصف كرم وشجاعة أخيه. وتظل صورة الأخ في عين الأخت الشاعرة تستكمل أجمل العناصر، حتى تصل بها إلى البهاء الذي يتمثل في سطوع الشمس، وتمام البدر، ووجه الهلال؛ تقول عمرة أخت عمرو ذي الكلب⁽⁴⁾:

فَكُنْتَ النَّهَارَ بِهِ شَمْسُهُ وَكُنْتَ دُجَى اللَّيْلِ فِيهِ هَلَالٌ

فقيمة صورته بالنهار، كقيمتها بالليل؛ فهو الشمس نهاراً وإشراقاً وبهجة، لليقظة، وهو الهلال في الليل، نوراً للسامرين، وهداية للمسافرين. وصورة الأخ عندها أيضاً قبل أن ترفعه بها إلى صفحة السماء تمر بصورة قبلية ممهدة للصورة السماوية الكلية الجامعة، تقول⁽⁵⁾:

(1) مارديني، شواعر الجاهلية، ص301.

(2) المهلهل، الديوان، ص46.

(3) القرشي، جمهرة أشعار العرب، 721/2.

(4) مارديني، شواعر الجاهلية، ص235.

(5) المصدر نفسه، ص240.

كُنْتَ الْمُجْبِرَ عَلَيْهِ تَقَهْرُهُ فَإِذَا سَطَوْتَ فَقَدْ سَطَا الْقَهْرُ
وَإِذَا سَكَتَ فَإِنَّهَا عِدَّةٌ وَإِذَا نَطَقْتَ تَدْفَقُ الْبَحْرُ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَخِي عَدَمٍ أَثَرِي وَزَالَ بِلَحْظِكَ الْفَقْرُ
وَإِذَا رَقَدْتَ فَأَنْتَ مُنْتَبِهٌ وَإِذَا بَدَوْتَ فَوَجْهُكَ الْبَدْرُ

فهو القهر، والبحر، والغنى، صور ستجعلها الشاعرة تلتقي بـ (البدر) في السماء الذي تختتم به أبياتها دلالة على شمولية الصورة العظمى لأخيها.

وكذلك قول عمرة أخت ذي الكلب في القصيدة نفسها تصور حال الأرض قبل وبعد وفاة أخيها في صورة تتسم بالروعة والإبداع فهي تقول (1):

مَا زَالَ يَحْسُدُ بَطْنُ أَرْضِكَ ظَهْرَهَا إِذْ تَمَّ أَمْرُكَ وَاسْتَوَى الْقَدْرُ
حَتَّى حَلَّتْ بِبَطْنِهَا فَتَقَدَّسَتْ فَالْيَوْمَ يَحْسُدُ بَطْنُهَا الظَّهْرُ

وقد أبدعت الخنساء في مجال التصوير في رثائها لأخويها، فقد صورت ما يختلج في نفسها، وكذلك الحالة النفسية التي وصلت إليها فقالت (2):

لَقَدْ صَوَّتَ النَّاعِي بِفَقْدِ أَخِي النَّدَى نِدَاءَ لَعْمَرِي - لَا أَبَالِكَ - يُسْمَعُ
فَقُمْتُ وَمَا كَادَتْ لِرَوْعَةٍ هُلِكَةٍ وَإِعْزَازِهِ نَفْسِي مِنَ الْحُزَنِ تَتَّبِعُ
إِلَيْهِ كَأَنِّي حَيَّةٌ وَتَخْشَعًا أَخُو الْخَمْرِ يَسْمُو تَارَةً ثُمَّ يُصْرَعُ

لقد جاء الناعي وأعلن بصدق عال صدق مقتل أخيها صخر، وتناقل الخبر جميع الناس، وقد كان وقع هذا الخبر قاسياً ومؤلماً، لشدته تضج له الآذان وتخفق له القلوب حزناً وألماً، وما كادت الخنساء تسمع النبأ الخطير والشر المستطير حتى أحست أن الحزن لموته قد سرى في جميع أجزاء جسمها، فكادت نفسها من شدة الهول والفرع أن تفارق جسمها (3).

ونرى التشبيهات بأنواعها في وصف الخنساء لأخيها صخر:

(1) مارديني، شواعر الجاهلية، ص 240.

(2) الخنساء، الديوان، ص 414.

(3) يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص 143.

فهناك التشبيه الضمني مثل قولها⁽¹⁾

يا عَيْنُ جُودِي بِالْذُمُوعِ الْمُسْتَهْلَاتِ السَّوَافِحِ
فَيْضًا كَمَا فَاضَ الْغُرُ بُمُتْرَعَاتٍ مِنَ النَّوَاضِحِ
وكذلك قولها⁽²⁾:

وَكَانَ ابْتِدَارُهُمُ لِلْعُلَى أَثَارَ فَمَدٍّ إِلَيْهَا يَدَا
وقولها⁽³⁾:

سمح الخليفة لا نكس ولا غمر بل باسل مثل ليث الغابة العادي
تصوير حال الشاعر بعد فقد أخيه:

لا يقتصر خيال الأخ بعد فقد أخيه على تصوير أثر فقدان، وإنما يهتم أيضاً بتصوير حاله بعد فقد أخيه، كتصوير مظاهر الحزن والدموع، والسهر والنحول، وغيرها. وتحدثنا عن بعض هذه الآثار في الفصل الثالث من أثر موت الأخ في نفس أخيه، ومن هذه الصور:

تصوير غزارة دموعه، وشدة انصبابها بمياه الدلو الممزق⁽⁴⁾ وهي أكثر الصور شيوعاً في المراثي الجاهلية، ومن هذه الأمثلة:

تقول أم عمرو ترثي أخاها ربيعة بن مكرم⁽⁵⁾:
مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمْعُ مُهْرَاقُ سَحًّا وَلَا عَارِبَ، لَا، لَا وَلَا رَاقِ
وقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك⁽⁶⁾:

إِذَا عَبْرَةٌ وَزَعَّتْهَا بَعْدَ عَبْرَةٍ أَبَتْ وَاسْتَهَلَّتْ عَبْرَةً وَدُمُوعُ

(1) الخنساء، الديوان، ص328.

(2) المصدر نفسه، ص145.

(3) المصدر نفسه، ص393.

(4) الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي، ص217.

(5) مارديني، شواعر الجاهلية، ص221.

(6) الضبي، المفضليات، ص271.

وقول الخنساء في أخيها صخر⁽¹⁾:

يا عَيْنَ جُودِي بِالْذُّمُّوعِ المستهلاتِ السَّوَّافِحِ

ومن الصور المكررة عند الشعراء تصوير حزنهم بحزن الناقة، وهذا ما نجده عند الخنساء وعند دريد في رثاء أخيه عبدالله إذ يقول⁽²⁾:

وَكُنْتُ كَذَاتِ الْبُورِ رِيْعَتَ فَأَقْبَلْتُ إِلَى قِطْعٍ مِنْ جِلْدِ سَقْبٍ مُجَلَّدٍ

وكذلك تشبيه الشاعر حزنه بخون الحمامة التي فقدت أليفها . فقالت الخنساء⁽³⁾:

كُونِي كَوَرَقَاءٍ فِي أَفْنَانٍ غِيلَتْهَا أَوْ صَائِحٍ فِي فُرُوعِ النَّخْلِ هَتَّافٍ

8.5 الخاتمة:

يمكن القول أنَّ هذه الدراسة ، قد استطاعت أن تبني من صورة الأخ في الشعر الجاهلي موضوعاً فيه من الثراء ا لفني والثراء العاطفي ما يجعله مؤهلاً إلى أن يقف في مصاف موضوعات الشعر العربي الأخرى ، وهو موضوع إنساني وجداني عند البشر يمتاز بالعواطف الصادقة ، ويعبر عن المشاعر والانفعالات في أدق المواقف وأصعبها .

وأثبتت الدراسة أن عاطفة الأخوة تعبر عن الحاجة النفسية والواجب الاجتماعي التي يقوم عليها ترابط الإخوة، للشعور بالأمن والأمان في مجتمع قائم على مبدأ الترابط والكثرة للتوليد القوة والمهابة في نفوس الأعداء . والتخلي عن الأخ في الظروف الصعبة أو في أرض المعركة يعد عيباً ومدعاة للذم والسخرية عند العرب، وذلك بعرض أمثلة شعرية تدل على ذلك .

(1) الخنساء، الديوان، ص328.

(2) اليزيدي، المراثي: 104؛ البو: أن يسلك الحوار ثم يحشى جلده فتعطف عليه أمه لتدر اللبن؛ الشعب: الذكر من أولاد الإبل..

(3) الخنساء، الديوان، ص408؛ أي كوني كحمامة ورقاء وهي القمرية، والغيل: الشجر الملتف.

وبينت الدراسة صفات سيد القبيلة ودوره في تنظيم أمور معيشة أفراد قبيلته ، والدفاع عنهم، وكذلك تبين الدراسة صفات الأخ السيد المدافع عن عرينه كالأسد شجاعةً وضراوةً .

قد أظهرت الدراسة في شعر رثاء الأخ عاطفة الإخوان بصورة جلية ، تدل على مدى فخر الأخ بأخيه ، وإعزازه له، ولذلك تجلت صورة الأخ مكسور الجناح والساعد بعد فقد أخيه ، وبيان حالته النفسية المحطمة، ثم بعد ذلك يتصبر و يتجلد ويتأسى بمن حوله، وهو يعلم أنه في يوم من الأيام سوف يتبعه في دربه.

وكذلك بينت الدراسة الطقوس والأساطير المتعلقة بالرثاء ، مع الشواهد على كل ما ذكر من الشعر المتعلق بصورة الأخ في الشعر الجاهلي .

وقد جاء في الفصل الرابع عن الثأر للأخ ، أن الأخ إن قُتل فهي طامة كبرى بالنسبة لإخوته حيث يبدأ الصراع النفسي والقبلي ، فيصاب الأخ بتوتر عصبي لا يهدأ له بال حتى يضفر بقاتل أخيه ، حتى وإن كان القاتل من أقربائه وقومه ، لدرجة أن بعضهم ثأر لأخيه من خاله متناسيا بذلك الروابط والعلاقات جميعها ، محاولة منه غسل العار الذي لحق بأسرته بعد مقتل أخيه إلى جانب مبدأ الثأر الذي كان مطلباً ملحقاً بالعصر الجاهلي ، والذي يتكئ في كثير من الأحيان على أسس العصبية القبلية حتى غدا الثأر قدر لا بد من الوفاء به، دون أن يغفل دور الأخت في التحريض على الثأر لأخيها بعاطفة صادقة تجاهه .

ومن أهم ثمرات هذه الدراسة الوصول إلى أن القصائد المتعلقة بصورة الأخ في الشعر الجاهلي ، امتازت بميزات فنية فريدة؛ من حيث الوحدة الموضوعية والعضوية، لتخلص من نظام القصيدة القديم وهو نظام المقدمة ، ليعاد النظر في كثير من الأحكام التي قيلت بشأن المقدمة من حيث دوافعها أو تفسيرها.

وكذلك عبر الشاعر عن عواطفه بصدق وإخلاص ، مستخدماً مفردات وألفاظ وتراكيب سهلة بعيدة عن الغموض والتعقيد .

وبينت الدراسة أهمية التكرار في شعر الرثاء كونه يعبر عن حالة الشاعر النفسية، ومدى الحزن واللوعة التي وصل إليها الأخ بعد فراق أخيه.

وأثبتت الدراسة أهمية الصور الشعرية عند العرب في التعبير عما في نفس الشعراء، مما تمتاز به من البساطة والسهولة المستمدة من بيئة العربي ، وكذلك استعان الشاعر العربي بضرب الأمثال ليبين الموت نهاية كل حي و لَن كُلَّ أَخٍ مفارقة أخوه.

المراجع

- بن أبي خازم ، بشر، (1972)، **الديوان**، ط2، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت: 630هـ-)، (1987)، **الكامل في التاريخ**، ط1، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن الخطيم، قيس (ت: 612م)، (1967)، **الديوان**، ط2، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ابن تميم، علقمة بن عبده بن ناشرة بن زيد مناة، (1925)، **الديوان**، شرح: الأعلام الشنتمري، الجزائر.
- ابن تولى، النمر، (د.ت)، **الديوان**، تحقيق نوري حموده القيسي، مطبعة المعارف، -بغداد، العراق.
- ابن جنل، سلامة، (1407هـ-)، **الديوان**، ط2، تحقيق: فخر الدين قباوه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن حبيب، محمد، (1972)، **أسماء المغتالين من الأشراف من نوادر المخطوطات**، ط2، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، مصر.
- ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، (1988)، **المقدمة**، ط5، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ابن زهير، قيس (ت: 16هـ-)، (1972)، **شعر قيس بن زهير**، تحقيق: عادل البياتي، مطبعة الأديب، بغداد، العراق.
- ابن زهير، قيس، (1411هـ-) **ديوان شعر بني عبس** ، ط1، جمع وتحقيق وشرح : عبد العزيز بن محمد الفيصل، القسم الثاني، دون ناشر.
- ابن سفيان، ثابت بن جابر (ت: 530)، (1984) **ديوان تأبط شراً وأخباره** ، ط1، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار العرب الإسلامي، القاهرة، مصر.

- ابن علس، زهير، (1994) **شعر المسيب بن علس** ، ط1، جمع وتحقيق: أنور أبو سويلم، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.
- ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم (ت: 276هـ)، (د.ت)، **الشعر والشعراء**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم (ت: 276هـ)، (د.ت)، **عيون الأخبار** ، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن كلثوم، عمرو (ت: 600م)، (1991)، **الديوان**، ط1، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ابن معد يكرب، عمرو (ت: 21هـ)، (1974)، **الديوان**، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا.
- ابن منقذ، (1412هـ)، **المنازل والديار**، تحقيق: مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح، القاهرة، مصر.
- ابن هفان، الخرنق بنت بدر، (د.ت)، **الديوان** رواية أبي عمرو بن العلاء، تحقيق: يسرى عبدالغني عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- أبو سويلم، أنور، (1403هـ)، **الإبل في الشعر الجاهلي** ، ط1، ج1، الرياض، السعودية.
- أحمد، شريف بشير، (2003)، **الخنساء ونموذجية صخر**، مجلة الجذور، العدد 15، النادي الأدبي، جدة، السعودية، ص ص 132-164.
- الأصفهاني، أبي الفرج (ت: 412هـ)، (د.ت)، **الأغاني**، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر، تونس.
- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت: 216هـ)، (د.ت)، **الأصمعيات**، تحقيق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- الألوسي، محمود شكري، (د.ت) **ملوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

امرؤ القيس، ابن حجر بن الحارق بن عمرو بن حجر (ت: 450)، **الديوان**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر.

الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت: 328هـ)، (1989)، **العقد الفريد**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

البحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت: 284هـ)، (1967)، **الحماسة**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

البصري، ابن هشام، (1985) **مختصر سيرة ابن هشام**، تحقيق: محمد عفيف الزعبي، درة النفائس، بيروت، لبنان.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: 255هـ)، (1965)، **كتاب الحيوان**، ط2، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: 255هـ)، (د.ت)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الجبوري، يحيى، (2001) **الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**، ط9، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الجرجاني، عبد القاهر (ت: 471هـ)، (1998)، **لائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق: محمد عبده الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الجشمي، دريد بن الصمة، (1981)، **الديوان**، تحقيق: محمد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق، سوريا.

جمعة، حسين، (1991)، **الترثاء في الجاهلية والإسلام**، ط1، دار العلم، دمشق، سوريا.

حاوي، إيليا، (1959) **فن الوصف وتطوره عند العرب**، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

حسين، طه، (1937)، **حديث الأربعاء**، مطبعة الحلبي، القاهرة، مصر.

الحوفي، أحمد محمد، (د.ت)، **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، ط3، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر.

- لحوفي، أحمد محمد، (د.ت) المرأة في الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر.
- لخطيب، بشرى محمد علي، (1971) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، جامعة بغداد، العراق.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الشديد (ت: 24هـ—)، (1988)، الديوان، ط1، تحقيق أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، الأردن.
- دراوشة، صلاح الدين أحمد، (2001)، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، ط1، مكتبة الفجر، عمان، الأردن.
- الذبياني، الشماخ بن ضرار، (د.ت) الديوان، ط1، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، الإسكندرية، مصر.
- زيتون، عبد الغني أحمد، (2001) الإنسان في الشعر الجاهلي ، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، أبو ظبي، الإمارات.
- السلمي، العباس بن مرداس، (1991)، الديوان، تحقيق: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- السيد، عز الدين علي، (د.ت) التكرير بين المثير والتأثير ، ط2، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- الشايب، أحمد، (1973)، أصول النقد الأدبي ، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
- الشمالية، غدير، (1996)، الثأر في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.
- لثوري، مصطفى عبد الشافي ، (1996)، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر.
- الشوري، مصطفى عبد الشافي، (1996) شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، بيروت، لبنان.
- صالح، مخيمر، (1981)، رثاء الأبناء، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

الصباري، خميس بن ماجد بن خميس، (2006)، فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

الضبي، المفضل بن محمد (ت: 168هـ)، (د.ت)، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، لبنان.

الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس، (1986)، ديوان الحماسة، ط2، شرحه ونشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر.

الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس، (ت: 231هـ)، (د.ت)، كتاب الوحشيات، ط3، علق عليه عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف، القاهرة، مصر.

العامري، لبيد بن ربيعة (ت: 35هـ)، (1984)، الديوان، ط2، حققه وقدم له : إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.

عباس، إحسان، (1959)، فن الشعر، ط2، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

العبيسي، عروة بن الورد ، (د.ت)، الديوان، تحقيق: عبد المعين المملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا.

العسقلاني، ابن حجر، (1989)، فتح الباري، تحقيق: عبد العزيز ابن باز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

عصفور، جابر، (1992) الصورة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.

عطوان، حسين، (د.ت) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف، القاهرة، مصر.

علي، جواد، (د.ت) فصل في تاريخ العرب قبل الإسلام م، ج5، دار العالم للملايين، بيروت، لبنان.

العواجي، محمد بن جرمان، (1415هـ) القيم الإنسانية في شعر الرثاء الجاهلي ، ط1، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة، السعودية.

غريب، جورج، (1984) **شاعرات العرب في الجاهلية** ، ط1، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

فتح الباب، حسن ، (1425هـ) **الرثاء في الشعر العربي القديم** ، **مجلة جذور**، العدد 18، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ص311-362.
القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، (د.ت) **جمهرة أشعار العرب**، حققه: محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، سوريا.

القرطاجي، أبو الحسن حازم (ت: 684هـ)، (د.ت)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق محمد بن الحبيب بن فوجة، دار الكتب الشرقية ، القاهرة، مصر.

القيرواني الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: 453هـ—)، (د.ت)، **زهر الآداب وثمر الألباب** ، ط1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان.

مارديني، رغداء، (2002)، **شواعر الجاهلية**، ط1، دراسة نقدية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت: 286هـ—)، (د.ت)، **الكامل في اللغة والأدب**، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان.

المبيضين، ماهر، (2003)، **الأسرة في الشعر الجاهلي** ، ط1، دار البشير، عمان، الأردن.

المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، (د.ت)، **معجم الشعراء**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار الرسالة، بغداد، العراق.

المسيعدين، فتحي، (2007) **شعر الطرماح بن حكيم الطائي** ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

الملائكة، نازك، (1978)، **قضايا الشعر المعاصر**، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

المهل، عدي بن ربيعة (ت: 530هـ—)، (1995)، **الديوان**، ط1، تحقيق: أنطوان محسن القوال، دار الجبل، بيروت، لبنان.

ميدان، أيمن محمد، (1995) **شعر تغلب في الجاهلية** ، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مصر.

الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت: 518هـ)، (د.ت)، **مجمع الأمثال** ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لبنان.

النايعة الذبياني، أبو أمانة زياد بن معاوية، (1984)، **الديوان**، تحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الهذليين، (1965)، **ديوان الهذليين**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

هلال، محمد غنيمي، (1973)، **النقد الأدبي الحديث**، ط1، القاهرة، مصر.

الهليل، عبد الرحمن بن عثمان، (1419هـ) **التكرار في شعر الخنساء**، ط1، دار المؤيد، الرياض، السعودية.

ول، ديوارنت، (1981)، **قصة الحضارة**، ط3، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر.

اليزيدي، أبو عبد الله محمد ابن العباس، (ت: 310هـ)، (د.ت) **الامالي**، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

اليزيدي، محمد بن العباس (ت: 246هـ)، (1967)، **المراثي والتعازي** ، مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا.

يعقوب، أحمد موسى عيسى، (1996)، **شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك ، إربد، الأردن.

السيرة الذاتية

الاسم: عادل حماد البلوي.

الكلية: الآداب.

التخصص: اللغة العربية.

السنة: 2008.

الهاتف النقال: 00966531691548.